كتاب
الثقافة الإسلامية
٩

الدكتور
علي أكبر ولايتي

مقدمة فكرية لحركة المشروطة

ترجمة الدكتور
محمد علي آذرشب



الدكتور علي أكبر ولايتي

مقدمـــة فكريـــة لحركـــة المشروطـــة

ترجمـــة

الدكتور محمد علي آذرشب

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب : مقدمة فكرية لحركة المشروطة

عدد النسخ : ٢٠٠٠ نسخة

الطبعة الأولى : ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م

الناشر : مركز الدراسات الثقافية الإيرانية ـ العربية

تصميم الغلاف : لبيب صندوق

العنوان : دمشق ـ المرجة ـ ص.ب ٩٣٥١

هاتف: ٢٣١١١٥١/٢٣١١١٤٩ ـ فاكس: ٢٣١١١٤٧

بسم اللّه الرحمن الرحيم

﴿ومن الناسِ من يُعجبُك قولُهُ فـي الحياة الدنيا ويُشهدُ اللّهَ على ما في قلبه وهو ألدّ الخصامِ. وإذا تولّى سعى في الأرض ليُفسد فيها ويُهلك الحرثَ والنسلَ واللّه لا يحبُّ الفساد. وإذا قيل له اتق اللّه أخذته العزّة بالإثمِ فحسبُهُ جهنمُ ولبئسَ المِهاد. ومن الناسِ من يشري نفسَه ابتغاء مرضات اللّه واللّه رؤوف بالعباد﴾.

(البقرة ٢٠٤ – ٢٠٧)

المحتويات

تمهيد ٩

خطط القوى الكبرى ١١

ردود الفعل ٢٩

الجذور الفكرية لحركة المشروطة ٥٧

معاهدات الخيانة ٨٩

الموقف الإسلامي من معاهدات الخيانة ١١١

مؤثرات أخرى في المشروطة ١٤١

مقدمة المترجم

تعرّض العالم الإسلامي بأجمعه لغزو أوربي اعتمد بعد عصر الحروب الصليبية على خطة أعمق وأدقّ استهدفت القضاء على مقومات وجوده.

وإذا كان وجود أية أمة يتوقف على جذورها الحضارية (أصالتها) وعلى حركتها نحو المستقبل (معاصرتها)، فقد عمل الغزاة على قطع الأمة عن جذورها، وعلى خلق هزيمة تشلّ روح التطلع إلى المستقبل في نفسها.

قصة هذا الغزو الثقافي في العالم العربي بدأت على يد المستشرقين والإرساليات التبشيرية والبعثات، وتواصلت عبر «المبهورين» و«المأجورين» لتفوّت كل فرصة سنحت لاستعادة العزّة والكرامة، وتحقيق التنمية والتقدّم.

وتتكرر القصة في إيران بمشاهد مشابهة تدير أحداثها الامبراطورية البريطانية وروسيا القيصرية، ويعمل على تنفيذها مباشرة أمثال فتح علي آخوندزاده، وميرزا ملكم خان، والميرزا حسين خان مشير الدولة، والميرزا آقا خان الكرماني وتلاميذهم متسترين بشعارات «تقدميّة» تدعو إلى التنكر لكل ما هو أصيل

في هذا المجتمع، وإلى الذوبان في الغرب وتقليده. وهؤلاء فوّتوا على الدعاة المخلصين من علماء الدين وتلاميذهم فرصاً عظيمة لإنقاذ البلاد من التخلف والانحطاط..

ومن هذه الفرص الحركة الدستورية، أو ما سميت بالحركة المشروطة (١٣٢٣ – ١٣٢٧هـ.ق) التي ظهرت فيها بوادر حركة شعبية متطلعة لمستقبل أفضل، لكنها انتهت بمشروع ممسوخ منقطع عن الجذور الفكرية والعقيدية للأمة، غير قادر على تحقيق أدنى مستويات التطوير في حياة الشعب الإيراني.

هذا الكتاب يتحدث عن الجذور الفكرية لانحراف حركة المشروطة عن أهدافها، وفي ثناياه وثائق هامة عن عمليات «قطع الجذور» وشل روح «التطلع نحو المستقبل» في إيران.

تشويه صورة الفتح الإسلامي لإيران، والهجوم على العرب واللغة العربية، ومحاولة إبعاد الدين عن الحياة، ومكافحة المظاهر الدينية.. من سبل قطع الإيرانيين عن جذورهم الثقافية والعقيدية، وإثارة الصراعات الطائفية، وافتعال الفرق الدينية ، ونشر الخرافات باسم الدين، وشراء الذمم، وربط كل تطلّع مستقبلي بالغرب، وإغراق الناس بمشاكلهم الصغيرة اليومية.. من أساليب بث روح اليأس والخمود والضياع في الأمة وشلّ روح المعاصَرة والتطلع نحو المستقبل فيها.

وأمام هذه العمليات الاستعمارية وقف المخلصون من أبناء الأمة وعلى رأسهم علماء الدين يحاولون استثارة غَيرةَ الجماهير لإحباط المؤامرات الخيانية، وشدّ الأمة بعقيدتها وجذورها الفكرية والروحية.

الإمام الخميني رضوان اللّه تعالى عليه توّج هذه المواقف المخلصة حين قدّم مشروعه الجامع بين الأصالة والمعاصرة، فشدّ الأمة في حركة فاعلة نشطة نحو مستقبل إسلامي، وحقّق انتصاره بإذن اللّه في هذه الرقعة من عالمنا الإسلامى. غير أن قصة الغزو الثقافي في إيران تبقى عبرة لكل المسلمين الذين يتعرضون لغزو مماثل، وللإيرانيين أنفسهم كي يفهموا منّة الإسلام عليهم، ولكي يفتحوا عيونهم على ما قد يخطط لهم من غزو ثقافي بأساليب أعقد وفي إطار أوسع..

وما يهم القارئ العربي أكثر فى قصة الغزو الثقافي بإيران، هو العمل على ربط كلّ توجّه تقدّمي وتطويري فى هذا البلد بضرورة التخلّص من الدين وعلماء الدين .. ومن الارتباط بالعرب واللغة العربية .

الحركة الماسونية ومن لفّ لفّها عملت بشكل مركّز فى إيران على تشويه صورة الفتح الإسلامي، وعلى ضرورة نبذ كلّ آثار هذا الفتح (ويسمونه الغزو) بما فى ذلك اللغة العربيّة والحرف

العربـي. واستطاعت أن تخلق تياراً انجـرّ إليـه جمـع مـن المثقفـين والباحثين ودعمه نظام الشاه علـى الصعيـد التعليمـي والاعلامـي والبحثي.

ولم يكن يقف أمـام هـذا التيـار سـوى المتدينـين مـن كافـة قطاعات الشعب والمثقفين الواعين بقيادة علماء الدين. هـؤلاء هـم الذين دافعوا عن الفتح الإسلامي لإيران وعن اللغة العربية، والخـط العربـي، وعن الهوية الإسلامية للإيرانيين، وعن القضايـا المشـتركة بين الإيرانيين والعرب وعلى رأسها القضية الفلسطينية.

وهذه مسألة هامة يجب أن تكون الأساس والمنطلـق فى كـل مواقف العرب من إيران على الصعيدين الرسمي وغير الرسمي.

وبعد فمؤلف الكتاب عاش السياسة من خلال توليه لأكثر من عقد من الزمن وزارة الخارجية فـي الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ووقف عن كثب على الوثائق والمستندات، وتلمّس عملياً أبعاد مـا يحيط بهذه الأمة من مؤامرات، فسلّط الضوء على أسباب انحـراف الحركة الدستورية (المشروطة) فـي إيران، ليقـدّم نموذجـاً لتـاريخ الصراع بين المتغربين والمتدينين فـي هذا البلد المسلم.

د. محمد علي آذر شب

دمشق ــ ربيع الثاني ١٤٢٢هـ

تمهيد

اتجهت دعوة الأديان الإلهية جميعاً إلى دفـع المسـيرة البشـرية على طريق الكامل المطلق سبحانه، لتحقق بمقدار ما أوتيت من قوة وقدرة وتجربة كمالَها النسبي فـي مجال العلـم والحكمـة والعـدل والإبداع والجمال. وكانت الرسالة الإسلامية هي خاتمة الرسـالات السماوية، لما تحمله من مقومات الدفع الهائلة للبشرية حـتى يـرث اللّه الأرض ومن عليها.

والواقع أن الإسلام نهض بعملية تحرير كـبرى للبشـرية حـين وضع عنها إصرها وما كان عليها من أغـلال العبوديـات الكاذبـة والأوهام الفارغة والعصبيات الضيقة، وجعلها تنطلق بسرعة فائقـة فـي ميادين الكمال البشري. وهذه الانطلاقـة آتـت أكلـها علـى الساحة التاريخية وامتد عطاؤها ليشمل كل أصقاع المعمورة بصورة مباشرة وغير مباشرة، وليرسم للإنسانية طريق عزتها وكرامتها.

ورغم كل ما واجهته المسيرة من عقبات الذاتيات المسـتفحلة، والآلهة المزيفة المتعملقـة، والجبـابرة الطغـاة، والموجـات الهمجيـة، وعمليات الإبادة الحضارية، ومظاهر التزييف والتخدير والتحميـق والتحمير باسم الدين، رغم كل ذلك ظلت شـعلة الدفـع الكـبرى متوهجة تثير الأشواق البشرية فـي المجتمعات الإسلامية نحو الفكر

والمعرفة والعدل ومقارعة قوى الظلام.

وهذه العلوم الواسعة المعمقة في شتى مجالات المعرفة، وهذا النشاط الواسع في حقل التدريس والتأليف على مرّ العصور، وهذه الثورات المتواصلة رغم كل ما لاقته من بطش وتنكيل إنما هي تعبير عملي عن شحنة الدفع التكاملي التي أودعها الإسلام في نفوس أبنائه.

غير أن العالم الإسلامي واجه منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادي خطة لاقتلاع هذه الروح الإسلامية من النفوس، ولخلق هزيمة نفسية أمام الأعداء، ولتربية جيل يتطوع لتقديم كل مقدرات بلاده ضحية على معبد الطاغوت الغربي. ونشأ على أثر ذلك جيل مايسمى بالمثقفين أو منوري الفكر ليتولى «مسؤولية» تعميق الهزيمة وبيع المقدرات والاستهانة بكل ماهو أصيل في هذه الأمة.

وفي هذه السطور نتحدث عن تجربة إيران في إطار خطة المسخ هذه لنضيفها إلى رصيد تجارب العالم الإسلامي، عسى أن يكون هذا الرصيد لنا عوناً في صحوتنا الإسلامية المعاصرة.

خطط القوى الكبرى

الخطة البريطانية

في سنة ١٦٠٠ ميلادية (١٠٢٠ هجرية) وقّعت الملكة «اليزابيث الأولى» على وثيقة حصر التجارة الشرقية باسم شركة الهند الشرقية تمهيداً لغزو الهند. ووضعت وزارة المستعمرات البريطانية خطة السيطرة على إيران، واقترن غزو الهند بالهجوم على إيران، واقتضت الخطة بالنسبة لإيران تنفيذ مايلي :

١- أن تبادر وزارة الخارجية البريطانية إلى تأسيس سفارة ومؤسسات بريطانية في إيران.

٢- توجيه التعليمات إلى الشركات البريطانية لتأسيس فروع تجارية في إيران وللعمل على مدّ الطرق وإنشاء البنوك والحصول على امتيازات استثمار المناجم.

٣- توجيه التعليمات إلى المستشرقين للتوجه إلى إيران ودراسة آداب هذا البلد وتاريخه وفنونه.

٤- إصدار التعليمات إلى علماء الآثار لدراسة الآثار التاريخية في هذا البلد، وكانت هذه الدراسة مقرونة طبعاً بنهب منظّم دقيق لكثير من كنوز إيران الأثرية.

٥- أن تنشط المحافل الماسونية البريطانية الفرنسية في إرسال أفرادها إلى إيران لتشكيل تنظيمات ماسونية فيها، وتشجيع الإيرانيين الوافدين على بريطانيا للانتماء إلى الماسونية.

٦- أن تنشط الإرساليات البريطانية إلى إيران في الاستفادة إلى أقصى حد مما في البلد من فساد وارتشاء وسرقة، وأن لا يعملوا أبدا على معالجتها، بل أن يسعوا في إشاعتها.

٧- منح الديبلوماسيين البريطانيين المقيمين في إيران صلاحيات لعقد معاهدات تتوجه إلى تقسيم البلاد، وإضعاف الحكومة المركزية، وصد أية عملية تنمية فيها.

وكانت كل بنود هذه الخطة تتجه إلى تمهيد السبل أمام الغزو البريطاني لإيران[1] .

ولو أمعنا النظر في جذور كثير من الحوادث المفتعلة خلال القرنين الأخيرين في إيران لوجدناها تعود إلى تلك الخطة الموضوعة.

لقد بدأ تنفيذ هذه الخطة حين كان أبناء هذا البلد يغطّون في سبات عميق، لا يدرون ما يجري حولهم، ولا يفكرون إلاّ في معاناتهم اليومية من الجوع والمرض وأنواع الأوبئة الوافدة من شبه

---

(١) ـ اسماعيل رائين، فراموشخانه وفراماسونري در ايران (فارسى)، طهران، منشورات أمير كبير.

القارة الهندية. وعلى حين غرّة اقترنت أمراضهم وأوبئتهم بـأمراض وأوبئة «سياسية» غير مشهودة، ظهرت آثارهـا فيـهم بـالتدريج، وظهر الضعف والهزال فـي جسـد هـذه الأمـة العظيمـة المقاومـة الصامدة على مرّ التاريخ، وأنزلوا كل يوم جرحاً عميقاً فـي شـلو من أشلائها، وحالوا دون تطبيب هـذا الجـرح ومعالجتـه، ولما آل الأمر إلى عفونته، تقدموا متلبسين بلباس جرّاح عطوف إلى فصل هذا الشلو عن الجسد. واستفحل الفساد بألوانه حتى خيّـم اليـأس على الناس، وأيقنوا أن لا قدرة لهم على العلاج.

فـي مثل هذه الظروف الحالكة تحرك الخناسون ليكتبـوا لآلام هذه الأمة المحتضـرة وصفـة دواء ربّمـا أزالـت بعـض العـوارض وسكّنت بعض الآلام، لكنها كانت تؤدي فيما تؤدي إلى الغفلة عن جذور المرض وعلاجه.

يبدو أن أول مبعوث رسمي بريطانـي قـدم إلى إيـران فـي العصر الصفوي هو «أنطونـي جنكنسن»، فقد بعثته ملكة بريطانيـا فـي نوفمبر ١٥٦٢م محمّلاً برسالة إلى الشـاه طهماسـب الصفـوي تخاطبه فيها بما يتناسب مع مزاجـه مـن ألقـاب: شاهنشـاه إيـران وشعب «ماد» و«پارت» و«گرگان» و«كرمان» و«ماركو» (مـرو) وقبائل ضفتـي شط دجلة وسائر القاطنين بين بحر الخزر والخليـج الفارسي .. الصوفـي الكبير.. الحاكم العريق والمقتدر.. ثم تقول لـه:

لقد بعثنا إليكم خادمنا الوفـي أنطونـي جنكنسـن ليتجـول فـي بقاع مملكتكم ولإقامة علاقات تجارية مع رعاياكم..

يقول اللورد كورزن (Curzon) فـي كتابه إيران ومسألة إيران (Persia and Question Persian): «حين قدم جنكنسن قزوين وقابل الشاه وسلمه رسالة ملكة بريطانيا قال له الشاه: آه، أيـها الكفـار، نحن لسنا بحاجة إلى صداقتكم، وأمره بـالعودة مـن حيـث أتى، ثم أمر الشاه أن تعفّر آثار أقدام هـؤلاء البريطـانيين بـالتراب لأنهـم نجّسوا الأرض التـي وطؤوها».

خرج هذا المبعوث البريطانـي مـن إيـران خائبـاً، واتجـه إلى موسكو، وقضى الشتاء هناك، وفـي العـام التالـي عـاود الكـرة واصطحب معـه شـخصين همـا «تومـاس الكـوك» و«ريتشـارد چنـي»، وتوجه نحو إيران، لكنه وجد من «عبد اللّه خان» والـي شيروان صدوداً وإعراضاً، لان هذا الوالـي كـان سـاخطاً بسـبب مقتل أحد المسلمين على يـد أحـد أتبـاع روسـيا ! فعـاد الثلاثـة أدراجهم يجرون أذيال الخيبة.

ويظهر أن محاولات البريطانيين وخططهم للنفـوذ فـي بـلاط الشاه تواصلت بكثافة، إذ نرى وفداً تجارياً بريطانيـاً مبعوثـاً مـن شركة الهند الشرقية يدخل بـلاط الشـاه طهماسـب بعـد عـامين، وينجح الوفد فـي كسب موافقة الشاه علـى إعفـاء الشـركة مـن

الحقوق الجمركية والترانزيت، وعلى إجازة الشركة أن تسافر إلى كل أجزاء إيران وتتاجر فيها[1].

هذا أول موضع قدم للبريطانيين في إيران، وتبعه نشاط دائب أدى إلى إقامة علاقات ودية !! بين البلدين.

وتدخل الدولة الصفوية حروباً عديدة وخاصة مع العثمانيين، وتتحمل أضراراً فادحة جرّاء القصف المدفعي العثماني، بينما الصفويون لم يكونوا يملكون سلاح المدفعية، ومن هذه الثغرة دخل البريطانيون بشكل وفد على رأسهم الأخوان أنطوني شيرلي (Anthony Sherley Sir) وروبرت شرلي (Robert Sherley) وقابلوا الشاه عباس الصفوي سنة ١٥٩٨م، واتفقوا معه على إنشاء المدفعية في الجيش الإيراني.

جورج منوارينغ (George Manwarinng) من مرافقي «السير أنطوني شرلي» يتحدث عن وصول الوفد البريطاني قزوين والضيافة التي أعدها له الشاه عباس، يقول:

«في قصر فخم جداً ورائع جداً، عُلقت على جدرانه المنسوجات المذهبة الثمينة، وفرشت على أرضه سجاجيد جميلة، وضعت على المائدة ألوان الأطعمة، وأذكر منها فقط أنواعاً من

(١) ـ نصر الله فلسفي، تاريخ روابط ايران واوروبا (فارسي) / ١٨٨.

الرز، كل نوع بلون معين. وفي داخل البيت مجموعة خاصة من العازفين، وثمة عشر نساء جميلات فاتنات يلبسن ثمين الثياب كن يمارسن خلال مدة الضيافة الرقص والدبك على الطريقة الإيرانية...».

..«السير روبرت شرلي بعد مغادرة أخيه تولّى منصب قيادة عسكرية، ونال الرتب والنياشين الراقية خلال حروب شاه إيران مع السلطان العثماني، وأبدى من الحزم وفنون الحرب ما جعل الإيرانيين يهدونه التاج تقديراً لفتوحاته. حين واجه العدو أخذ بيده رمحاً وحمل على الأتراك حملة أثارت الحيرة والدهشة، وأدت إلى هزيمة الأتراك».

«صموئيل پرچاس» (Samuel Purchas) الراهب البريطاني الذى زار المشرق خلال السنوات بين ١٦١٣ و١٦٢٦ يكتب في رحلته:

«الحكومة العثمانية التي بثت الخوف والرعب في العالم المسيحي، هي الآن مذعورة من فرد بريطاني هو السير انطوني شرلي، وقلقة على مصيرها. لقد تعلم الإيرانيون فنون الحرب من شرلي...» (١) .

---

(١) ـ نفس المصدر / ١٢٢.

فـي هذه النصوص التاريخية نكات على غاية الأهمية تستطيع أن تضع النقاط على كثير من الحروف. يتبين منها:

أولاً : أن السياسة الاستعمارية تقضـي أن المسـتعمرين حـين يطردون من البـاب يحـاولون أن يتسـوّروا المحـراب. ويواصلـون المحاولات تلو المحاولات بشتى الأساليب حتى يحققوا ما يصبون إليه من أهداف.

ثانياً : مدى ما كانت تحمله الصليبية مـن حقـد علـى الدولـة العثمانية، وسبب اهتمـام انطونـي شيرلـي بتدريـب الإيرانيـين عسكرياً، وتحويلهم إلى خنجر يطعن ظهر العثمانيين.

ثالثاً : فتح الطريق أمام الغزو الثقافـي والمسخ الثقافـي.

كل الجهود انصبت على طريق نهب ثـروات الشـعوب وعلـى إزالة كل مانع فـي هذا الطريـق. ولم يكـن ثمـة عقبـة أمـام نفـوذ الأجانب فـي بلدان العـالم الإسـلامي أكـبر مـن الإسـلام بمعنـاه الشامل. وكان الغرب الصليبـي على علـم كـامل بخطـر الإسـلام، ولذلك لا نشك فـي وجود الأيدي الصليبيـة وراء هجـوم المغـول علـى العـالم الإسـلامي، ووراء الصـراع الدمـوي بـين العثمـانيين والصفويين.

كانت الأيدي الغربية الآثمة تسعّر نار الخلافات والحروب بـين الأخـوة المسـلمين الإيرانيـين والأتـراك لتضعفـهما معـاً ولتوقـف

الإيرانيين عند حدود مصالح إمبراطورية الهند الشرقية وتوقف الأتراك عند حدود أوروبا المركزية، ثم لتأتي على سائر أجزاء العالم الإسلامي لتأكلها واحدة بعد أخرى بعد أن أكلت الثور الأبيض.

واجتمعت العوامل لتنخر في جسد الحكومة الإيرانية وتؤدي بها إلى منتهى الضعف والهزال: تدهور الحكومة الصفوية، وهجوم الأفغان، وقيام شركة الهند الشرقية، وتنفيذ الدسائس في الحدود الجنوبية والجنوبية الشرقية، وتزلزل الحكومة الزندية، وفشل «لطف علي خان الزندي» في الاحتفاظ بالسلطة التي وطدها له أبوه، والمجازر الدموية الظالمة التي ارتكبها «آقا محمد خان القاجاري»، وسياسة الدهاء الأجنبية وخاصة البريطانية، وضعف «فتح علي شاه القاجاري»..

ولسوء الحظ فان هذا الضعف والهزال في جسد الحكومة الإيرانية صادف ذروة اقتدار «نابليون» ملك فرنسا الذي استشعر حلول روح «الاسكندر المقدوني» فيه، وطمح إلى أن يسخّر الشرق والغرب تحت قبضته.. واستهدف أن يتعاون مع «بولس الأول» قيصر روسيا، ومع الجيش الإيراني ليخرج الهند من قبضة البريطانيين. من هنا دخل البريطانيون بكل قواهم ساحة المعركة ليحولوا دون تنفيذ خطة نابليون، واتجهت جهودهم بالدرجة الأولى

صوب إيران التـي كانت تعتبر يومئذٍ بوابة الهند.

«السير هاردفورد جونز» و«السيرجان ملكم» وهما من كبـار أساتذة الماسونية يدخلون إيران، ويذكر جونز فـي مذكراته: «... لقد أدخلتُ فـي الماسونية ما استطعت من رجال إيـران ووفّـرت الأجواء لقدوم السير جان ملكم»[1] .

فتح علي شاه الذى كان يعانـي من عجز فـي الميزانيـة ومـن النفقات الباهظة لبلاطه وبيت حريمه اضطر إلى تـأمين احتياجاتـه من أخذ الرشوة تحت عناوين مختلفة من الأوربيين.

حاشية الشاه اقتدوا بالشاه فـي أخذ مثل هذه الرشاوى. علـى سبيل المثال وزير خارجيته «ميرزا أبو الحسن خان»، الذي شـغل قبل ذلك منصب سفير إيران فـي بريطانيـا، كـان يتقـاضى راتبـاً شهرياً بمبلغ ألف روبية من شركة الهند الشرقية، منـذ سـنة ١٨١٠ حتى وفاته سنة ١٨٤٦، ومن الطريف أنه تقدم سنة ١٨٤٣ بطلـب إعطاء نصف هذا المبلغ لولده بعد وفاتـه[2] ! هـذا الطلـب رفضـه «اللورد بالمرستون» وزير خارجيـة بريطانيـا آنئـذ. وسـنعود إلى الحديث عن ميرزا أبو الحسن هذا فـي مناسبة أخرى.

---

(١) ـ مذكرات جونز، نقلاً عن رائين، مصدر مذكور ١/١٦.

(٢) ـ وثائق وزارة الخارجية البريطانية ٦٠/١٤٢، نقـلاً عـن رائـين، مصـدر مذكور ١/٣٣٤.

«جان ويليام كي» البريطاني يتحدث في كتابه: «تاريخ الحروب الأفغانية» عن مهمة السيرجان ملكم والسير هاردفورد جونز، وتوزيعهما الرشاوى على الشاه وحاشيته ويقول:

«كان ملكم يحمل مهمة الدخول في محادثات مع إيران عن أحد طريقين: الأول : إعطاء ٣٠٠ - ٤٠٠ ألف روبية على شكل قرض لمدة ثلاث سنوات إلى الحكومة الإيرانية. والثاني : أن يكسب الشاه وحاشيته إلى جانبه بدفع الرشاوى لهم. وملكم اختار الطريق الثاني ونال مبتغاه[1] كانت كل المشاكل تحل عن طرق الجنيهات والذهب البريطاني بشكل سحري.

.. على سبيل المثال لو أريد إخراج أحد أتباع فرنسا من إيران، فان قيمة إخراجه يُساوم عليها كما يساوم على ثمن الحصان. إيران بلد لا يمكن القيام فيه بأدنى خطوة دون إنفاق مبالغ ضخمة»[2].

خطط بريطانيا الماهرة في زمن حكومة نابليون بشأن إيران تعد من أتقن الخطط وأبرعها في تاريخ الدبلوماسية العالمية. فقد

---

(١) ـ ابراهيم تيموري، عصر بي خبري (فارسي) نقلاً عن: رائين مصدر مذكور ١٨/١.

(٢) ـ جرنت واتسن، تاريخ ايران في العصر القاجاري/١٩، نقلاً عن رائين١٨/١.

نجحت هذه الخطط في إحباط محاولات فرنسا وروسيا للإغارة على الهند، بل ونجحت أيضاً في فصل أجزاء مهمة عن إيران وشراء ذمم عدد من الرجال وتحويل الحكومة إلى كائن هزيل لايقوى على شيء.

الخطة الروسية

الضعف التدريجي الذي دبّ إلى جسد الحكومة الإيرانية خاصة في عصر فتح علي شاه قد وفّر الفرصة لهجوم روسيا على إيران. الحروب الروسية الإيرانية التي استهدفت تحقيق أهداف القياصرة التوسعية جرت في مرحلتين، واستغرقت ١١ شهراً. المرحلة الأولى: من ١٢١٨ إلى ١٢٢٨هـ.ق، والمرحلة الثانية: من ١٢٤١ إلى ١٢٤٣هـ.ق وأسفرت عن انفصال ١٧ مدينة من أكبر مدن إيران الشمالية والتحاقها بروسيا.

ولنلق نظرة على أهداف روسيا في هجومها على المناطق الحدودية الإيرانية من خلال البند التاسع من الوصية المنسوبة إلى «بطرس الكبير» إمبراطور روسيا المقتدر في النصف الأول من القرن التاسع عشر:

«يجب أن نقترب ما وسعنا من إسلامبول والهند. من يحكم هذه المناطق يحكم العالم حقيقة. من هنا لابد من إثارة حروب

مستمرة مع الإيرانيين، يجب إنشاء أحواض صناعة السفن على ساحل البحر الأسود واحتلال هذا البحر والبحر البلطيقي بالتدريج، فهما يشكلان منطقتين مهمتين للتقدم وتنفيذ الخطة. ولابد من العمل على الإسراع في اضمحلال إيران والسيطرة على الخليج الفارسي، وإعادة الحياة قدر الإمكان إلى الطريق التجاري الشرقي القديم عبر سوريا حتى الهند التي هي بمثابة مستودع العالم. وحين نصل إلى هذه المناطق بإمكاننا أن نعرض عن ذهب بريطانيا»[1] .

نقف – ولو قليلاً – عند الأحداث التي اقترنت بهزيمة إيران أمام روسيا لأنها هامة في إلقاء الضوء على تسلسل بحثنا هذا مستندين إلى نصوص من كتاب «ناسخ التواريخ» الذى يعتبر أفضل مصدر عن هذا العصر.

«حين تسلط الروس على أرض المسلمين اعتدوا على الأعراض والأموال. بلغ خبر ذلك «السيد محمد الأصفهاني» عن طريق بعض خدم نائب السلطنة ممن كان مستاء من مصالحة الروس. وكتب السيد الأصفهاني الذى كان يقطن العتبات المقدسة إلى جهاز بلاط الشاه أنْ قد حان وقت الجهاد مع الروس فما هو رأي الشاه في ذلك؟ فقال الشاه: نحن كنا دائماً في فكر الجهاد

(١) ـ علي أكبر بينا، تاريخ سياسي و ديبلوماسي ايران (فارسي) ١٢/١.

ونذرنا أنفسنا لترويج الدين والشريعة. وما إن سمع السيد الأصفهاني برأي الشاه حتى توجه إلى دار الخلافة فوصل طهران في العشر الأواخر من شهر شوال المكرم، واستقبله جميع الأمراء والعلماء..».

«... يوم الجمعة السابع عشر من ذي القعدة، جناب السيد محمد والملا محمد جعفر الاسترابادي، والسيد نصر اللّه الاسترابادي والسيد محمد تقي القزويني والسيد عزيز اللّه الطالشي وعلماء وفضلاء آخرون وردوا معسكر الجيش، واستقبلهم الأمراء والحكام. ويوم السبت وصل الملا أحمد نراقي الكاشاني وهو ممن بزّ أقرانه من علماء الاثنى عشرية يرافقه الملا عبد الوهاب القزويني وجماعة من العلماء والحاج ملا محمد نجل الحاج ملا أحمد الذي كان هو أيضاً من أفاضل المجتهدين. وسارع كل الأمراء والحكام والأعيان لاستقباله، واصطحبوه إلى محل إقامته بالتكبير والتهليل. وهؤلاء المجتهدون اتفقوا على إصدار فتوى الجهاد، وأنّ كل من يتهاون في جهاد الروس فقد عصى اللّه وتابع الشيطان...».

«سفير الروس يئس من الحديث مع جهاز الدولة وأراد أن يقابل العلماء علّه يصرفهم عن موقفهم، ويقنعهم بأنه يتعهد أن يبعد الروس عن حدود إيران. فأجابه المجتهدون بأن الحديث مع الكفار

بلين واستسلام ذنب كبير في شريعتنا، وأننا نعتقد بوجوب جهاد الروس حتى ولو ابتعدوا عن حدودنا. وفي النهاية استدعى الشاه سفير روسيا وقال له: الأمر الآن أصبح يقوم على أساس مباني الشريعة، ونحن فضلنا دائماً قوامَ الدين على مصلحة الدولة. وأجازه أن ينصرف، وأعطاه ألف تومان ذهباً وأشياء أخرى...»[1].

«... من جانب آخر أمر الشاه «الميرزا أبو القاسم مستوفي الأصفهاني» أن يستضيف «جان مكدانولد كيز» البريطاني الذي أرسلته حكومة الشركة الهندية ليقيم في إيران وكيلاً لدولة بريطانيا خلفاً لـ«هنري دلك..».

«.. وأرسل «نيقولا» امبراطور الروس «كينياز بخشكوف» ليكون سفيراً في إيران... واستقبله الشاه في السادس عشر من ذي القعدة، فتسلم الشاه رسالة الإمبراطور وعرشاً من البلّور مهدى إليه. وهذا العرش كان قد أعده لشاه إيران «الكسندر بادلويج»، ولكنه لم يبق في الحكم، وعندما جلس أخوه نيقولا على عرش السلطنة أرسل ذلك العرش. وهو بطول ثلاثة أذرع وعرض ذراعين من البلور الأبيض المرصع، على كل جانب منه

---

(١) ـ ميرزا محمد تقي سبهر (لسان الممالك)، ناسخ التواريخ، طبعة حجرية، ج١، من «تاريخ القاجارية» ذيل «وقائع سنه ١٢٤١هـ وابتداء نقض الروس لعهدهم مع إيران».

ثلاث مشارب يفور منها الماء، وخلف المقعد تمثال قرص الشمس من البلور الصافي..».

«... كان معتمد الدولة الميرزا عبد الوهاب ووزير الخارجية الميرزا أبو الحسن (خان المعروف بايلچي) ممن لا يرتضي محاربة روسيا. أرسل المجتهدون إليهما خطاباً شديد اللهجة وقالوا لهما: إنّ في عقيدتكم ودينكم لفتوراً، والاّ فِلمَ تستكرهون جهاد الكفار.. فسكت هذان عن المعارضة...».

ولنتعرف على ميرزا أبو الحسن خان المعروف بـ «ايلچي» الذي أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية:

«... في سنة ١٢١٥ هـ حين أمر فتح علي شاه بتنحية الحاج إبراهيم كلانتر عن رئاسة الوزارة واعتقاله، وحين أصبح أعضاء أسرة الحاج إبراهيم بين أسير أو قتيل أو مسمل العيون أو مشرد، كان ميرزا أبو الحسن خان آنئذ حاكم شوشتر، فجيء به أسيراً إلى طهران، وهمّ الشاه أن يقتله لولا وساطة بعض أعضاء البلاط، فعفي عنه وأُجبر على الإقامة في شيراز. لكن الميرزا هذا استطاع بمساعدة الإنجليز أن يذهب إلى الهند عن طريق البصرة، وأقام في بمبي. وفي سنة ١٢٢٣ توسط الصدر الأصفهاني فأعاده إلى طهران. وبعد عامين ذهب إلى لندن سفيراً يرافقه جيمز موريه سكرتير السفارة البريطانية..»

«السير جور أوزلـي بارت «Sir Gore Ouzely Bart» مستضيف أبو الحسن خان ومن زعماء الماسونية عرف ضيفــه بسـرعة ورآه مناسباً للورود فـي حلقة الماسونية. والميرزا أبو الحسن خان مثــل الميرزا عسكرخان (أول ماسونـــي إيرانـــي) طـوى كـل مراسـم الماسونية بسرعة، وخلال مدة قصيرة اعتلى منصب «پاست جراند ماستر» «Past Grand Master» وتولى من قبل «جراند لوج انجلنـد» مهمة التعاون مع السير جور أوزلـي – الـذي ارتقـى إلى منصـب رئاسة الماسونية الإقليمية فـي إيران – لتأسيس لـــوج ماسونـــي فيها...»[1].

ولنميط اللثام أكثر عن ردود الفعــل المتباينـة تجـاه الاحتـلال الروسي بين أصحاب «الأصالة» و«المتغربين» نلقـي الضـوء علـى واحد من كل من الفريقين.

♑ ♑ ♑

---

(١) ـ رائين، مصدر مذكور / ٣١٩/٣٢١.

ردود الفعل

الشيخ شامل

الشيخ شامل رئيس الطريقة الصوفية النقشبندية، وزعيم المجاهدين المسلمين القفقاسيين، أعلن الحرب على روسيا في أواسط القرن الثالث عشر الهجري وحارب لسنوات جيش القياصرة، لتحرير القفقاس من السيطرة الروسية. وتعاون لمدة مع «القاضي ملا» المجاهد القفقاسي المعروف، وبعد مقتل القاضي ملا قتل أيضاً خلفه «حمزة بيك» (١٨٣٤م) فأصبح الشيخ شامل زعيم مجاهدي داغستان. حارب هذا الشيخ مدة ٢٥ سنة (١٨٣٤-١٨٥٩م) لتحرير بلاده ضد قادة جيش الإمبراطورية الروسية، وحمّل الجيش الروسي خسائر فادحة، وأبدى مهارة قتالية فائقة. استمرار هذه الحرب وطول مدتها أرهق أنصاره وأتعبهم ، فتفرق عنه أكثرهم، وكانت النتيجة أن انهزم أمام جيش عظيم وجهه إليه قيصر روسيا المعروف «الكساندر الثاني»، فاعتقل، واقتيد إلى سان بطرسبورغ عند القيصر، فأمر بنفيه إلى كالوغا. وسقطت كل القفقاس بيد روسيا، وأصبحت كل قبائل القفقاس خاضعة

بالتدريج للسيطرة التزارية. طلب الشيخ شامل سنة ١٢٨٥هـ أن يؤذن له بالحج، فذهب إلى الحجاز وتوفي في المدينة المنورة. ولده «قاضي محمد» انخرط في خدمة الدولة العثمانية وشارك في حربها ضد روسيا سنة ١٨٧٧م. لكن مساعيه لاستثارة شعب داغستان لم تسفر عن نتيجة، وتوفي في مكة المكرمة[١].

ميرزا فتح علي آخوندزاده

لكي نكون موضوعيين في الحديث عن هذا الرجل نقتطف ما كتبه عنه واحد من أشد مؤيديه هو الدكتور فريدون آدميّت في كتابه: «انديشه‌هاي ميرزا فتح علي آخوندزاده» = أفكار... يقول: «في تيار الفكر الجديد، ميرزا فتح علي آخوندزاده (١٢٢٨ – ١٢٩٥) يعتبر من المبدعين، ممثل الفكر العلمي النقدي، رائد كتابة المسرحية والقصة الأوربية في الشرق، مبتكر إصلاح الخط وتغيير حروف الهجاء في العالم الإسلامي، منتقد الأدب الكلاسيكي ومحطم التقاليد في كتابة التاريخ، وداعية أخذ العلم والحكمة والمدنية من الغرب، منظّر القومية الإيرانية، ناقد السياسة والدين، والمؤمن بانفصال السياسة عن الدين انفصالاً مطلقاً، وعدو الحكومة

---

(١) ـ غلام حسين مصاحب، دائرة المعارف (فارسى)٢/١٤٣٨، طهران، شركت سهامى كتابهاى جيبى، وانظر أيضاً بريتانيكا ٢٠/٤٥٥.

الاستبدادية وكل ألوان الحكم الفـردي، نصـير المشـروطة العقليـة العرفية القائمة على أساس الحقوق الطبيعية. المنادي بإصلاح الدين (البروتستانتية الإسلامية) مفكـر مـادي بأفكـار وآراء مضبوطـة منسجمة ليس فـي نظامه الفكري خلل وتناقض. كل ما فيه أصالة المادة وسلطان العقل».

«ميرزا فتح علـي نشأ فـي عائلة متوسطة فـــي آذربايجـان، والده تبريزي وأمه من مراغة، هو يقول عن نفسه بأنه من العنصـر الفارسي. إنه من الشعب الإيرانـي ووطنه أرض إيران.

... كان والده عمدة مدينة «خامنه» من أعمال تبريز حين كان «عباس ميرزا» ولياً للعهد ونائباً للسلطنة فـي آذربايجان.

فـي سنة ١٢٢٧ نُحّي والده من منصـب العمـدة، فـهاجر إلى مدينة «شكي» فـي القفقاس حين كانت جزء مـن إيـران. وفـي سنة ١٢٢٨ يولد فتح علـي فـي «نوقة» من ضواحي شكي، وبعد عامين تعود العائلة إلى تبريز، بعد خمسة أعـوام تفـترق أمـه عـن والده بسبب خلاف بينهما، وتأخذ ابنها وهو آنئذ فـي السابعة مـن عمره وتذهب إلى قرية مشكين مـن أعمـال أردبيـل عنـد عمـها «آخوند حاج علـي أصغر». ويظل فتح علـي تحت رعاية آخوند علـي أصغر حتى الثالثة عشرة من عمره، وعرف باسم الحاج علي أصغر أوغلي (الابن)، ولهذا حمل لقب آخوندزاده (ابن الآخوند).

في سنة ١٢٤١ آخوند علي أصغر رافق نائب السلطنة عباس ميرزا إلى مدينة گنجه في القفقاس واصطحب معه ميرزا فتح علي وأمه.. كان فتح علي في الثانية والعشرين من عمره حين قدم تفليس.. فعرّفه آخوند علي أصغر على عباس قلي بيك المعروف باسم بكي خان، وهو مؤلف وعالم ومترجم الحاكم الروسي في القفقاس.. وهذا الأخير امتحن فتح علي، وعيّنه مساعد مترجم في مكتب الشؤون الإدارية لحاكم القفقاس وفي ورقة استخدامه ذكرت بداية خدمته: الأول من نوفمبر ١٨٣٤ المطابق للحادي عشر من شهر رجب ١٢٥٠ (بعد احتلال الروس لأرض القفقاس)..».

ويكتب فريدون آدميت في كتابه:

«في نفس المدرسة التي درّس فيها ميرزا فتح علي اللغة التركية بتفليس توطدت صداقة بينه وبين رفيق فكره وزميله الأرمني «خاجاطور ابوفيان» (١٨١٠ - ١٨٤٦). وأبوفيان كاتب ومحرّر ومؤسس الأدب الواقعي الأرمني الجديد، وكاتب رواية «جرح ارمنستان». وبقدر ما كان ميرزا فتح علي ساخطاً على المسجد كان ابوفيان ناقماً على الكنيسة»[1]

(١) ـ الكتاب المذكور / ١٦.

«... فـي دفتر حياة الميرزا فتح علـي وكتاب أفكاره تشـاهد بوضوح أصالته الإيرانية. كان فـي السادسة عشرة من عمره حـين فصلت القفقاس بحراب الجيش الروسي عـن أرض إيـران. قضـى خمسين عاماً من عمره فـي القفقاس القابعة تحت حكم الأجنبـي. وعمل أربعين عاماً فـي جهاز نفس تلك الحكومة الأجنبية، لكـن أصالة شخصيته كانت ثابتة دائماً. كـان منشـداً إلى إيـران طـوال الوقت، يتحدث باستمرار عن هموم شعب إيران والقفقاس، والروح الشعبية تشكل سدى ولحمة أفكاره وعواطفه. وهو بنفسـه يقـول: وإن كنت على الظاهر تركياً، فان أصلي من الفـرس.. وأرجـو أن يعلم الإيرانيون أننـي ابن الفرس ووطنـي إيران»[1].

ويقول فريدون آدميت فـي موضع آخر من كتابه:

«ميرزا فتح علـي كان رجلاً ذكياً موهوباً وكان يتمتع - كمـا يقول هو عن نفسه - بوحدة الذهن... كثير المزاح وفطـن وقـوي الملاحظة. وكان أحياناً يلقي الحديث الجادّ فـي أسلوب مـازح. ومن الناحية النفسية كان رجلاً متعادلاً، وكان يتمتـع بحيـاة هانئـة مرفهة..»[2].

---

(١) ـ نفس المصدر /٢٢.

(٢) ـ نفس المصدر /٢٠.

وقفة أطول عند أفكار آخوندزاده

من أجل أن نطّلع أكثر على أفكار واحد من روّاد التغرّب في إيران نقف أكثر عند أفكار آخوندزاده. يقول فريدون آدميت:

«فكرة إصلاح الخط وتغيير الحروف الهجائية من آثار التفاعل بين المدنيتين الشرقية والغربية، وسيطرة المدنية الأوربية. رائد هذا التفكير ومبتكر الخط الجديد في المجتمعات الإسلامية ميرزا فتح علي. ومنه سرت هذه الفكرة إلى تركيا. لقد ولد هذا الوعي الاجتماعي في إيران وتركيا نتيجة التفاعل بين الغرب والشرق ونتيجة التجارب العينية المكتسبة. وهذا الوعي دفع إلى تعقّل أسباب الانتكاس التاريخي والانحطاط المادي، وإلى التفكير في سبل التقدم وتعلم العلوم والفنون الأدبية...

أفكار ميرزا فتح علي تطوّرت على مرحلتين متمايزتين تطوراً كلياً: المرحلة الأولى، إصلاح الحروف الهجائية . الثانية، تغيير الخط.

في المرحلة الأولى: ألغى نقاط الحروف، وجعل شكل الحروف وحده مميّزاً للحرف عن الآخر. وحركات الإعراب جعلها جزء من الحروف وكَتَبَها بإزائها...

وفي المرحلة الثانية: تغيرت فكرة ميرزا فتح علي تماماً، واعتقد بعدم جدوى إصلاح الحروف الهجائية. ولابدّ للخط أن

يتغيّر وأن تستبدل بهذه الحروف الموجودة الحروف اللاتينية. وأن تكتب من اليسار إلى اليمين. وعلى هذا الأساس قدم مشروعاً جديداً يمثل تحوّلاً تكاملياً في أفكاره».

وبشأن بدايات فكرة إصلاح الخط، وكيف خطرت في ذهن ميرزا فتح علي يقول فريدون آدميت:

«.. لا أدري، ولا جدوى في التخمين والتقريب. أنا على اطلاع إلى حدّ ما على مصدر فكرته هذه، إنها تجربة قيصر الروس (بطرس) في روسيا. يقول ميرزا فتح علي في بعض كتاباته: رأى القيصر أن خط الروس القديم يحول دون تقدّم الشعب في العلوم فتركه واستحدث خطاً بالحروف اللاتينية. خالفه العوام والقساوسة وأشراف مملكته. ورفعوا عقيرتهم بالقول: إننا سنفقد ديننا.. فلم يبال القيصر بحماقاتهم وجدّ في عزمه.. وبسبب تغيير الخط هذا ساروا على طريق الرقي آناً فآنا»[1].

وحول دافع فتح علي لإصلاح الخط يقول فريدون:

«يمكننا بنظرة سطحية أن نعتبر الدافع في ذلك كراهية الكاتب للعنصر العربي وما يرتبط بالعرب. وعندنا دليل - يبدو وجيهاً - لتأييد ماذهبنا إليه. هو (ميرزا فتح علي) يقول في كتاباته: أحد الآثار المشؤومة لسيطرة العرب الوحوش (كذا) على ثغور إيران

---

(١) - نفس المصدر /٧٤.

أنهم فرضوا علينا خطاً يجعل المستوى المتعارف من التعليم من أشق الأعمال... والآن فإن المصنف يبذل غاية مساعيه لإنقاذ شعبه من هذا الخط القذر الدنيء (كذا) المتبقي من تلك الأقوام، ولانتشال شعبه من الظلمة والجهالة إلى نور المعرفة».

«... ثمة عاملان جديدان كان لهما الأثر في ترسيخ هذه الفكرة في ذهن ميرزا فتح علي إلى حد كبير: الأول مضمون رسالة «شارل ميسمر» الفرنسي مستشار «فؤاد باشا» الصدر الأعظم العثماني. فقد اقترح في هذه الرسالة تغيير الحروف الهجائية التركية والأخذ بالحروف اللاتينية.. والثاني - التجربة العملية لحكومة الروس. بعد احتلال داغستان كتب ميرزا فتح علي إلى ميرزا ملكم خان يقول:

«حكومة الروس بعد احتلال داغستان، أي منذ سنتين، وضعت لشعوب الأوار والشيشان والجركس حروف هجاء مستقلة بخط لاتيني. وقررت هذا الخط في المدارس الجديدة التى فتحت هناك، ونقلت بعض الكتب الإسلامية إلى هذا الخط. سيصبح هؤلاء أهل ثقافة وعلم. أما أهالي القفقاس وهم ما يقرب من مليونين فلا يزالون يقبعون تحت كارثة الخط الإسلامي القديم (كذا) عمياناً جهلاء مثل الحيوانات»[1].

---

(١) - نفس المصدر /٧٦.

وينقل فريدون آدميت عن ميرزا فتح علي عبارات تدل على غطه الفكري يقول: «في كل العالم الغربي يدور هذا السؤال: هل إن المعتقدات الباطلة أي المعتقدات الدينية تؤدي إلى سعادة الشعب والوطن أم إلى ذلة الشعب والوطن؟ كل فلاسفة تلك الأقاليم متفقون على أن المعتقدات الدينية تؤدي إلى ذلة الشعب والوطن في كل المجالات»[1].

وبشأن مجالس عزاء الإمام الحسين(ع) يقول الميرزا فتح علي:

«روّج لهذه المجالس الديالمة والصفويون في أيامهم، باقتضاء سياستهم. والآن فقد انتهت تلك الدواعي، ولكنك ترى هذه المجالس أينما ذهبت. تُرى، هل إن هؤلاء الناس وقد تراكمت المصائب عليهم، بحاجة إلى من يذكرهم بمصائب القرون الغابرة ويلهيهم عن كسبهم وعملهم؟! هذه المجالس لافائدة فيها أصلاً لا لك ولا للإمام»[2].

ولآخوندزاده أشعار كل مضامينها تنطوي على الإلحاد وكراهية الإسلام وخاصة التشيع..

---

(١) ـ نفس المصدر /٢١٠.

(٢) ـ نفس المصدر /١٩١.

لماذا هذا الاستعراض لجذور التغرّب

الذي دفعني إلى هذا التقصّي لجذور التغرّب في إيران هو محاولة إعطاء تحليل دقيق لحركة المشروطة أو الحركة الدستورية في إيران.

لقد تناول دراسة هذه الحركة كتّاب كثيرون ركز كل واحد منهم على جانب منها، وعلى رأسهم أحمد كسروي في كتابه: «تاريخ مشروطة إيران» (فارسي)، ويمكن تقسيم هذا الكتاب على قسمين:

الأول - جمع الوثائق التاريخية المرتبطة بالحركة، وهو عمل قيّم ومفيد، خاصة وهو يرتبط بفترة حساسة جداً من تاريخ إيران.

والثاني - تحليل هذه الوقائع وإطلاق الأحكام عليها، وهي أحكام تبتعد غالباً عن الإنصاف.

المعيار في كل أحكام كسروي هو الثناء على من ناصر المشروطة والهجوم المقذع على من خالفها لأي سبب من الأسباب، لاعتقاده بأن المشروطة عطاء عشرات السنين من الجهود التي بذلها المتغربون والمتجددون.

أنظر إلى حكمه على واحد من كبار العلماء هو المرحوم السيد محمد كاظم اليزدي (رضوان اللّه تعالى عليه)، الذي كان معارضاً

للمشروطة غير المشروعة (غير القائمة على أساس الشرع المقدس):

«... السيد كاظم الذي كان حاذقاً في خداع الناس وإثارة العامة، تحرك بشدّة، أرسل إلى العشائر العربية القاطنة حول النجف وكربلاء وعلى ضفاف الفرات، وهم من الشيعة، أن يأتوا زرافات إلى النجف بأسلحتهم ومعداتهم ويحوطوا السيد بالدبكات والهوسات والشعارات المعادية للمشروطة. وكانوا لا يألون جهداً في إيذاء كل من يعرفون فيه تأييداً للمشروطة. وفي كل يوم يؤمّ فيه السيد الصحن لأداء الصلاة كان عدة آلاف من الإيرانيين والعرب يصطفون للصلاة خلفه...»[1].

وهناك من راح يحلل حركة المشروطة تحليلاً ماركسياً وفق القوالب النظرية التي وضعتها المادية التاريخية ومقتضيات الصراع الطبقي[2].

واقتصر بعض الباحثين على ترجمة رجال المشروطة معتقداً أن هذه التراجم تستطيع أن تسلط الضوء على وقائع ذلك الزمان من

---

(١) ـ أحمد كسروي تبريزي، تاريخ مشروطة ايران (فارسي)، طهران، منشورات أمير كبير، ط١٢، ص٣٨٢.

(٢) ـ مثل محاولة: محمد رضا فشاهي، از گاتها تامشروطيت (فارسي)، طهران، منشورات غوتنبرغ، ١٣٥٤.

خلال ارتباط طبيعي بشخصياتها[1].

غير أن الطريقة التي احتذاها أحمد كسروي في دراسة المشروطة تسرّبت إلى الكتب الدراسية الإيرانية قبل انتصار الثورة الإسلامية، وإلى جيل من الدارسين.

واللغز الذى بقي غامضاً عليّ هو التزام رجال السياسة في العهد البهلوي بهذه الطريقة الكسروية في تحليل المشروطة. يثنون – رغم حقدهم على علماء الدين – على ذلك الرهط من علماء الدين الذين أقاموا المشروطة، ويندبدون مقابل ذلك برجال الدين الذين عارضوا مثل «الشيخ فضل اللّه النوري» !! لماذا هذا الالتزام بالنهج الكسروي؟ !

لقد كنت منذ صباي أعيش تناقضاً في الرؤي تجاه المشروطة.

من جهة أقرأ في المدرسة أن المشروطة ثمرة حركة الناس والعلماء، وهذه الحركة أدت إلى ظهور «فرمان» المشروطة على عهد الشاه مظفر الدين. وأهل الذوق استخرجوا مادة تاريخ هذا الفرمان بعبارة «عدل مظفر». وحدثت بعد ذلك مشاكل مرّت بسلام. من ذلك أن الشاه محمد علي المستبد بمساعدة الحكومة الروسية قصف مجلس الشورى بالمدافع لأن الأجانب (المقصود

(١) ـ مثل كتاب: ابراهيم صفائي، رهبران مشروطه (فارسي)، طهران، ١٣٤٤.

روسيا) لم يكونوا يريدون لهذه النهضة الشعبية أن تؤتي ثمارها.

كنا نقرأ أيضاً: أن بعض الروحانيين السطحيين مثل الشيخ فضل اللّه نوري !! كانوا في صف المعارضين للمشروطة ولكن القوى المناضلة المناصرة للمشروطة واصلت كفاحها، وأجبرت الشاه محمد علي على الفرار تحت حماية المظلة الروسية (وهذا تأكيد آخر على حماية روسيا للشاه المستبد)، وأُعدم الشيخ فضل اللّه، واتجه كل شيء إلى الاستقرار.

وقرأنا كذلك: إن الدول الأجنبية ساءها أن ترى الشعب الإيراني يعيش بسعادة في ظل المشروطة. فشرعوا في التدخل في شؤون إيران. وحركوا العشائر، وثارت في كل ناحية فتنة عشائرية. ومن هؤلاء المتمردين «الكولنيل محمد تقي خان پسيان» و«ميرزا كوچك خان».. حتى جاء «رضا شاه»، وتحرك لقمع الفتن وقطع يد الأجانب، فنشر الأمن والرفاه وحقق الاستقلال للبلاد، ثم جاء بعده «محمد رضا» فواصل إصلاحات والده !!

هذا ما كنا نقرأه في الكتب الدراسية، ومن جهة أخرى كان المرحوم والدي يقول:

«كنت طفلاً في السابعة أو الثامنة من عمري حين رآني أبي وأنا أشدّ على ساعدي علامة المشروطة، فتغيّر وجهه حين رآني وقال: افتح هذه العلامة ! ». وجدّي كان مزارعاً ولم يكن

إقطاعياً يخشى على مصالحه من المشروطة، ولم يكن مرتبطاً ببلاط القاجار أو أجيراً للشاه محمد علي. ومتى ما ذكر المرحوم الشيخ فضل اللّه النوري كان يتأوّه من الأعماق ألماً على ما نزل بالشيخ من ظلم.

كنا نعيش هذا التناقض في فهم المشروطة حتى صدر كتاب «غرب زدگی» = التغرّب ، للمرحوم جلال آل أحمد. وفيه يتصدى - لأول مرة - مثقف تقدّمي، ولكن لا من النوع المتداول، للثناء على المرحوم الشيخ فضل اللّه، ويعلن أن صعود جسده على المشنقة إيذان بهيمنة التغرّب.

وثمة أسئلة كانت تطرح نفسها في هذا المجال وتضغط على ذهني، ولا تزال مطروحة على بساط البحث:

١- لماذا كان الشيخ فضل اللّه النوري وهو من المجتهدين البارزين مسانداً للمشروطة في البداية ثم أصبح بعد ذلك معارضاً لها؟

٢- لماذا كان أنصار المشروطة يلجأون إلى السفارة البريطانية متى ما ساءت الأوضاع؟

٣- لماذا كان يدافع عن المشروطة أفراد مشبوهون أمثال ملكم خان؟

٤- لماذا أصبح ««يبرم خان الأرمني» (عضو فرقة الداشناك) مدافعاً عن المشروطة؟

٥- بعد بدء النزاع بين الشاه محمد علي وأنصار المشروطة، لماذا يسرع «الجنرال أسعد بختياري» وهو من كبار رؤساء العشائر (خان) إلى العودة من أوروبا إلى عشيرته، فيقود خيّالة عشيرة البختياري ويهجم على طهران للدفاع عن أنصار المشروطة.. هذه المشروطة التي شاع عنها بأنها معادية لنظام الخانات (النظام العشائري)؟

٦- لماذا قاوم أنصار المشروطة إضافة كلمة «المشروعة» (وتعني الاستمداد من الشريعة الإسلامية) إلى كلمة (المشروطة»؟

٧- لماذا تطورت الأوضاع في مجلس الشورى حتى أصبح «السيد حسن المدرس» معزولاً وغريباً فيه؟

٨- لماذا أهمل بشكل كامل الأصل المتمم للدستور القاضي بأن يضم المجلس خمسة مجتهدين من الطراز الأول ليطابقوا بين قرارات المجلس وقوانين الشريعة الإسلامية؟

٩- ما هو دور المتغربين في هذه النهضة؟

١٠- لماذا كان كثير من الماسونيين شديدي الاهتمام بإقامة المشروطة، وأي نفع في المشروطة للماسونية؟

١١- لماذا كانت الحكومة البريطانية والمستشرقون البريطانيون مثل «ادوارد براون» من أنصار المشروطة؟ !

الأسئلة المذكورة دفعتني إلى جانب غيرها من الدوافع إلى

السعي لدراسة المشروطة بمعزل عن الالقاءات الكسروية، وأبحث عن جذورها. ولما كانت الفكرة أساساً من واردات الغرب فلابدّ من متابعة تاريخ التغرّب في إيران. عدت إلى تاريخ الصفويين وعهد الشاه طهماسب وقضايا الأخوين «شيرلي»، ووقفت عند عصر «فتح علي شاه»، لأن علاقات إيران بالغرب قد اتسعت في هذا العصر، وكنا نعاني آنئذٍ من الحروب الإيرانية - الروسية. وبدأت البعثات الدراسية إلى أوروبا.. إلى آخر مسلسل الأحداث.

آثار الهزيمة أمام الروس

نفس هزيمة إيران أمام روسيا كانت لها آثار عظيمة أهمها الهزيمة النفسية. فرجالنا رأوا هزيمة المجاهدين الإيرانيين - رغم قوة عقيدتهم وجسامة تضحياتهم - هزيمةً أمام قوة «التكنولوجيا»، فأقدموا على إيفاد الطلاب إلى الغرب، وكان لهؤلاء الموفدين لدى عودتهم أثر كبير على التحولات الفكرية في إيران. فقد بلغ الانبهار بهؤلاء درجة دفعتهم إلى تقليد أعمى، وأسقطت بعضهم في فخ العمالة والتبعية وبيع المقدرات. ذكرنا نموذجاً من هؤلاء حين تحدثنا عن «أبو الحسن خان الايلجي». هذا الأجير كان يتقاضى ألف روبية شهرياً ثمناً لعمالته. وفي معاهدة العار المسماة «معاهدة گلستان» توسط، لتسليم مناطق شمال غربي إيران إلى

روسيا، كي يتلافى تقصيره أمام الإمبراطورية وكانت مواقفه من أولى محاولات تصدّي المتغربين لمعارضة الإسلام.

جماعة معارضي الإسلام كانت على نحوين: الأولى ذكية فطنة، نجدها جميعاً تتغذى من مائدة سفارة واحدة. والثانية - غبية تردد كالببغاء ما يقوله لها الآخرون. أكثرهم من العائدين من أوروبا وتبعهم في ذلك رهط من غيرهم.

أشرنا فيما سبق إلى الظروف التي أحاطت بالحرب الإيرانية الروسية.

وأضيف هنا أن الأحداث بعد هذه الهزيمة تطورت حتى حوّلت هذا البلد العريق العظيم إلى شبح بلد، تفتك به الصراعات الداخلية، وتتناوشه شتى الأطماع الخارجية. وكان هناك عامل واحد لا غير يصون المجتمع من الإبادة والتمزّق والانفراط وهو الإسلام، وخاصة «مذهب أهل البيت». ولذلك كان من الطبيعي أن تتجه كل جهود الأعداء والطامعين إلى اضمحلال هذا العامل.

في قضية الحرب الإيرانية الروسية مرّ بنا أن «فتح علي شاه» لم تكن له قدرة على الحرب. وروسيا كانت قد عرفت كل نقاط ضعفه. كانت التقارير تتوالى متحدثة عن اعتداءات الجيش الروسي على مدن إيران، وفي الوقت ذاته يقدّم بخشكوف، ممثلاً عن نيقولا قيصر الروس، عرشاً من البلور هدية إليه. والميرزا أبو

الحسن خان وزير الخارجية، الذي يتقاضى ألف روبية من البريطانيين بواسطة شركة الهند الشرقية، لا يرتضي الحرب مع روسيا، أي إن كل الظروف كانت مهيئة لتقديم مدن القفقاس إلى ورثة بُطرس الكبير إزاء عرش نيقولا البلوري. وكان الشاه «الرجعي» راضياً بذلك وكذلك ميرزا أبو الحسن «التقدمي» المنفتح على الغرب.

هناك عامل واحد فقط استثار غَيرة الحكومة وهو النداء الصارخ الذى أصدره المجتهدون والفقهاء المراجع مثل سيد محمد مجاهد والملا أحمد النراقي. كان هذا النداء هو الحافز الوحيد لما أبداه الناس من حماس للجهاد في سبيل رضوان اللّه تعالى في هذه الحرب غير المتكافئة بين واحدة من أكبر القوى العالمية آنئذ، وحكومة واهية في مهبّ الريح.

ربّ سائل يسأل: وما جدوى حكم الجهاد؟ فالنتيجة كانت الهزيمة وانفصال ١٧ مدينة من إيران. والجواب: أن الروس كانوا يطمعون من حروبهم الوصول إلى المياه الدافئة في الخليج الفارسي، ومقاومة المجاهدين أوقفتهم عند جبال الارس.أضف إلى ذلك أن المقاومة الصلبة التى أبداها المجاهدون خلال أحد عشر عاماً بمساندة العلماء أوشكت أن تثمر لولا خيانة العملاء. فلو تعمقنا في تاريخ تلك الفترة لألفينا أن روسيا قد استنزفت قواها

جراء حربها الطويلة مع إيران، وأحيطت بمشاكل ومصائب في أوربا، وكانت تبحث عن «مبرّر» لمصالحة إيران والخروج من الأراضي المحتلة. ولكن تدخل السفير البريطاني وخيانة العملاء أدت إلى تسليم الأراضي المحتلة إلى القوى المهاجمة، ضمن معاهدة خيانية. ومن الطريف أن الذي مثّل إيران في عقد هذه المعاهدة نفس ميرزا ابو الحسن خان وزير الخارجية، سفير إيران السابق لدى بريطانيا والماسوني ذو راتب الألف روبية، وغير الراضي عن محاربة الروس !!

على أي حال عقدت اتفاقية ضمنت المصالح المشتركة لروسيا وبريطانيا، فروسيا اقتربت من المياه الدافئة التي تصبو إليها، وبريطانيا حققت أهدافها في إضعاف الحكومة المركزية وتجزئة إيران وإزالة ما قد يشكل خطراً على شركة الهند الشرقية. وهذه الاتفاقية واجهت ردود فعل الفئات الاجتماعية المختلفة. ونحن ذكرنا آنفاً نوعين من ردود الفعل، أحدهما لأصحاب «الأصالة» والآخر عن «المتغرّبين». وقصدنا بأصحاب الأصالة الجماهير المسلمة وقادتهم الدينيين الذين تتبلور فيهم آمال الأمة وآلامها وعقائدها وجذورها الثقافية..

بعد سقوط القفقاس، نهض مسلمو تلك الديار.. هؤلاء المسلمون الذين يسميهم فتح علي آخوند زادة عمياناً جهلاء..

نهضوا لمقاومة استتباب التسلط الروسي، وجاهدوا بصلابة وصبر مدة ٤٩ عاماً (١٢٩٢ - ١٢٤٣هـ.ق)[١].

قيادة هذه النهضة تولاّها علماء الدين والشخصيات الإسلامية مثل القاضي ملا، وحمزة بيك، والشيخ شامل وأمثالهم[٢].

ولم ينهض ولا واحد من هؤلاء «التقدميين» «المتجددين» ليرفع راية ضدّ الروس القياصرة الذين كانوا في أنظار الإيرانيين محتلين، وفي أنظار المثقفين الروس رجعيين مستبدين.. لم ينهض واحد من هؤلاء.. بل الأسوأ من ذلك أن «آخوندزاده» أصبح موظفاً أجيراً في حكومة المحتلين.. ولقد ذكرنا أنه بقي في خدمة المحتلين مدة ٤٥ عاماً وكان يعيش حياة مرفهة ناعمة !!

انظر إلى تقابل الصورتين:

أجزاء من أرض الوطن تتعرض لهجوم المحتلين، فتتصدى لهم جماهير مؤمنة لا تطلب شهرة ولا مكسباً عارضاً، يحدوها الإيمان والعشق، وتنضوي تحت لواء علماء الدين، وتقاوم لسنين بأسلحتها البسيطة أمام المحتلين وتقدم آلاف الشهداء.

وأحد هؤلاء القادة الشيخ شامل يقاوم مدة ربع قرن حتى يقع في الأسر دون أن يستسلم للذل، وفي أواخر حياته يطلب أن

---

(١) ـ دائرة معارف مصاحب /١٤٣٨.

(٢) ـ بريتانيكا / مصدر مذكور.

يذهب إلى الحجاز ليختار مثواه الأخير جوار رسول اللّه عليه أفضل الصلاة والسلام. يذكّرنا الرجل بحياة الصحابة المجاهدين في صدر الإسلام. لم يهن ولم ينكل بل مضى على بصيرة من أمره يقاوم ويقاوم، حتى أسر مثل أسد هصور يقع في شرك الصيد.. ثم يموت ميتة طيبة لها معان كبيرة مثل حياته المفعمة بالمعاني الجسام.

وبالمقابل لا نرى في جيل أدعياء التقدمية سوى بعض الانتقادات على طريقة البَطَر والاسترخاء الفكري، ولم يأب زعيمهم ورائدهم أن يصبح موظَفاً لدى المحتلين ويعيش حياة مرفهة منعّمة، ثم يصدر من مكانه الناعم وَصْفات علاج لكارثة هذه الآمة تتلخص في الهجوم على مجالس الإمام الحسين(ع) وعلى الخط العربي وعلى كل القيم المعنوية والمعتقدات الدينية لهذه الأمة المقاومة المكافحة الصابرة الصامدة المضحية.. ويصبح هذا الشخص مفخرة لدى نظرائه من أمثال فريدون آدميت الذي مرّ بنا حديثه عن فتح علي آخوندزاده.

توجه الدارسين في الغرب

حرب إيران والروس كشفت عن حقيقة مرّة، وأفهمت حكومة القاجاريين مدى تخلفهم عن قافلة العلم والرقي. وجدّ المخلصون

من أمثال «ميرزا عيسى» المعروف بالميرزا الكبير وزير عباس ميرزا نائب السلطنة، في إرسال مبعوثين إلى الدول المتقدمة ليتعلموا وينقلوا التطور التقني الغربي إلى بلادهم.

لأول مرة توجه اثنان من الطلبة الإيرانيين سنة ١٣٢٦هـ ق إلى بريطانيا. عباس ميرزا قال لسفير بريطانيا: «اهتموا بتدريس هذين ليعودا بالنفع عليّ وعلى أنفسهما وبلدهما». أحدهما توفي بعد عام ونصف العام من إرساله، والثاني عاد إلى الوطن بعد أن درس الطب لست سنوات.

عقب ذلك توجهت بعثة من خمسة أشخاص سنة ١٣٣٠ هـ. ق لدراسة الهندسة والطب والمدفعية والرياضيات واللغة والحكمة الطبيعية إلى بريطانيا.

غادروا عن طريق روسيا إلى لندن، وعادوا سنة ١٣٣٥ وتولى كل منهم مسؤولية من المسؤوليات. اثنان منهم تولى مناصب رفيعة. أحدهم «ميرزا جعفر المهندس» الذي أصبح فيما بعد سفير إيران لدى الدولة العثمانية وتلقب بلقب مشير الدولة، ثم أصبح رئيس شورى الدولة. وهو نفسه الذي كتب إليه ميرزا ملكم خان رسالته باسم «كتيب الغيب أو دفتر التنظيمات» في إصلاح الحكومة الإيرانية. والآخر ميرزا محمد صالح الشيرازي وكان من أهل الفضل والكمال والذكاء والحنكة. تعلم في بريطانيا اللغة

الإنجليزية والفرنسية واللاتينية والحكمة الطبيعيـة والتـاريخ وفـن الطباعة، وارتبط بالمحفل الماسونـي هناك. بعد عودته أصبح مترجم الدولة الرسمي، ثم وزير طهران وكُلف بعدة مهام سياسية..

الميرزا صالح نفسه يقول عـن انتمائـه إلى المحفـل الماسونـي: «كنت منذ أمد أرغب فـي الانتماء إلى الماسـونية، ولكـن لم تتـح لـي الفرصة، حتى استطعت دخول المحفل مع المستر پارسي والمستر دارسي، تناولت طعام العشاء هناك، وعدت فـي السـاعة الحاديـة عشرة ، ولا يجوز أن أتحدث أكثر من ذلك حول هذا الموضوع»[1].

هذا الذي أُرسل إلى الغرب ليكون بلسماً لجراح أمته ووسـيلة لإنقاذها من تخلفها التقنـي يصبح أداة انتشار الماسونية فـي بلـده، وضماناً لاستمرار السيطرة الاستعمارية الطويلة على شعبه. كما أن غسيل الدماغ الذي طاله يؤدي به إلى القول:

«إن سلسلة الملالـي (ويقصـد بهـم علمـاء الديـن) مـاداموا يتدخلون فـي شؤون الدولة العثمانية فليس يؤمّل قط فـي تقـدم هذه الدولة».

---

(١) ـ فريدون آدميت، فكر آزادي ومقدمة نهضت مشـروطيت (فارسـي)، طهران، منشورات سـخن ١٣٤٠، ص ٢٣ ـ ٢٤. ولابـد أن نذكـر هنـا أن حقيقة الماسونية لم تكن معروفة آنذاك كما نعرفها اليوم، وبقيـت هـذه الحقيقة مجهولة لسنوات طويلة. لذلك نرى في قائمة المنتمين إلى المحفـل الماسوني أسماءرجال كبار انتموا في فترة من حياتهم إلى الماسونية.

هل هذا الكلام ينطلق من فهم للـداء والـدواء أو مـن عقـدة وكراهية للدين وأهله؟ !

كل إنسان مسلم حادب على بلده، مهتم بمصالح شعبه يأمل أن يرى شعبه سـعيداً ووطنـه آمنـاً مسـتقلاً فـي المجـال السياسـي والاقتصادي، وأن يرى بلده ذا علاقة بالمنظومة الدولية قائمة على أساس السيادة الكاملة والاحترام المتبادل. كل إنسان مخلص يـأمل أن يرى بلده قد وصل إلى حدّ الاكتفاء الذاتي فـي حقل الزراعـة والصناعة، وأن يسير فـي ركب العلم والمعرفة نحو الفـلاح المـادي والمعنوي.

فهل هذه الوصفـات التـي كتبـها أمثـال مـيرزا فتـح علـي آخوندأوف، وعبد الرحيم طالب أوف (سيأتي ذكره)، وميرزا صالح الشيرازي ومن لف لفهم قـادرة علـى تحقيـق هـذه الأهـداف؟ ألم تجرب تلك الوصفات فـي القرون الأخيرة؟ عمّ أسفرت؟

من آخوندزاده حتى سعيد نفيسي أجمع أدعياء التقدميـة علـى ضرورة تغيير الخط. ولو أن الشاه الأخير المقبور آتته الفرصة لفعـل ذلك. ولكن لا تأسفوا أيـها السـادة علـى سـقوط الشـاه وعـدم استطاعته تغيير الحروف العربية، فلقد جربـت تركيـا هـذا التغيـير على يد مصطفى كمال باشا وتبدل الخـط العربـي إلى لاتينـي، فماذا جنت تركيا من هذا التغيير؟ وأي تطور علمي شهدته جـراء

لجوئها إلى الخط اللاتيني؟ انظروا إلى اليابانيين.. خطهم فيه كثير من الصعوبة وكثير من التعقيد، لكنهم لم يجروا عليه أى تغيير، ومع ذلك حققوا أسرع تطور علمي وتقني في تاريخ البشرية. ولولا ما تحيط بهم من ضغوط أمريكية لاستطاع الين الياباني أن يحطم الدولار الأمريكي أكثر فأكثر، ولاستطاعت «تويوتا» أن تشل «جنرال موتورز»[1] .

لقد أنشد «عارف القزويني» أن كل مصائب هذا البلد من «رجال الدين ورجال القاجار»، وكلاهما أُخرجا من الساحة تماماً لدى استيلاء رضاخان (بهلوي)، أسقط النظام القاجاري، وأصبحت العمامة جريمة لا تغتفر، وحلت السترة والبنطلون محل القباء الإيراني، والقبعة بدل الطاقية، والشوارب الفرنسية والهيتلرية بدل اللحية، والتنورة بدل الشادر، والابتدائية بدل الكُتّاب، والجامعة بدل الحوزة العلمية... فماذا حصل عليه الشعب من تقدم؟ ! ألم يعمدوا إلى تمديد «اتفاقية دارسي» بكل فخر واعتزاز؟ ! مع فارق هو أن الإنسان الإيراني في العصر البهلوي فقد حرية الاعتراض تماماً، فمن ينطق بأدنى اعتراض يُسَلُ لسانُه من قَفاه.

---

(١) ـ كتبت هذه الدراسة قبل سقوط الدولار الأخير أمام الين الياباني (المترجم).

كل أدعياء التقدمية في إيران ركزوا على القومية الإيرانية، وعلى إيران قبل الإسلام.. انظر إلى عبارة آخوندزاده: «وإن كنت على الظاهر تركياً فأصلي فارسي..»[1] وبهذه العبارة يشير إلى أن جدّه هاجر من «رشت» إلى آذربايجان.

هذا التأكيد على العنصر الفارسي يسود ذهنية كل جيل المتغرّبين. لا أدري أهم عالمون أم جاهلون بأخطار مثل هذه الدعوة على إيران، التي تضمّ أجناساً مختلفة.

الإسلام في إيران صهر الأتراك والعرب والبلوش والفرس و... في بوتقة واحدة، وجعل منهم أمة منسجمة تشترك في الآمال والآلام والعقيدة والعواطف، فلماذا ترفعون شعاراً يمزّق ويفرّق ويجلب ويلات الصراع العنصري على هذا البلد؟ !

الغريب أن هؤلاء القوميين الإيرانيين سارعوا إلى مساندة «انقلاب رضاخان» لأنه رفع راية «القومية الإيرانية المعادية للإسلام» . فهل يبقى شك في الأيدي الاستعمارية المتسترة وراء هذا التيار؟ !

لقد كان الميرزا صالح يأسف على وضع الدولة العثمانية وتخلفها بسبب تدخل رجال الدين فيها. وقد تحقق حذف رجال الدين من تركيا تماماً، فماذا حققته من تقدم جرّاء عملها هذا؟ !

---

(١) ـ آدميت، انديشه هاي ميرزا فتحعلي.. (فارسي) / ٢٢.

الميرزا أبو الحسن خان الايلجي الماسوني كان ممثلاً لإيران في معاهدتي «تركمان چاي» و«گلستان».. وهما معاهدتا الذل اللتان أعقبتا الحرب الروسية الإيرانية.. وبموجبهما اقتطعت أجزاء هامة من إيران، وأصبحت روسيا صاحبة نفوذ واسع في هذا البلد المسلم[1].

♑ ♑ ♑

(١) ـ رائين مصدر سابق/٢٣٢. وانظر أيضاً: حسن بيرنيا وعباس اقبال آشتياني، تاريخ ايران، طهران، منشورات خيام، ١٣٤٧، ص٧٩٧.

الجذور الفكرية
لحركة المشروطة

حدثت حرب هرات، وفتح قائد الجيش الإيراني حسام السلطنة هذه المدينة، ولكن أقساماً من جنوب إيران سقطت بيد الجيش البريطاني على أثر دسائس الإنجليز وخيانة الطابور الخامس. انظر إلى النص التالي:

«فيلكس جونز ممثل حكومة بريطانيا الكبرى المقيم في الخليج الفارسي كتب في تقرير له برقم ٧ وتاريخ ١٣ نوفمبر ١٨٥٦ إلى اللجنة السرية في لندن يقول: عن طريق شخص اسمه علي شاه يعمل لحساب بريطانيا ويقيم في شيراز، قابلت الأمير حاكم فارس.

١- أعرب الأمير عن اهتمامه الشخصي بدولة بريطانيا.

٢- نقلت نفس هذا الموضوع المهم إلى حاكم بمباي.

٣- أمير منطقة فارس التقى بي في جلسة خاصة، وأطلعني على معلومات قيمة مفيدة. وقال لي: انتخبوني من أجل أن أُحلّ السلام بين إيران وبريطانيا.. جدير بالذكر أن هذا الأمير هو حفيد فتح علي شاه..»[(١)].

---

(١) - علي أكبر بينا، تاريخ العلاقات السياسية والدبلوماسية بين إيران وبريطانيا (بالفارسية) ١٥٥.

هذا الحاكم الأمير – بدل أن يدافع عـن سـيادة منطقتـه أمـام هجوم الأعداء – يرضخ لهذه الخيانة بكل سهولة. علماً أن سواحل الخليج الفارسي: المحمرة (خرمشهر) وأهـواز وخـارك تسـقط بيـد جلاوزة شركة الهند الشرقيّة، ثم تعقـد معـاهدة بـاريس الخيانيـة، بوساطة من فرنسا، بين إيران وبريطانيا. ومثّل إيـران فـي هـذه المعاهدة «فرخ خان أمين الملك كاشـي» ومترجمـه بـل ومشـاوره الميرزا ملكم خان [1].

استنادا إلى الفصول ٥و٦و٧ من هذه المعاهدة، تتعهد الحكومـة الإيرانية أن تسحب كل قواتها من هرات وكل أرض أفغانسـتان ، وأن تسحب كل ادّعاء لها بمدّ سلطانها علـى هـرات وأفغانسـتان، وأن تتجنب كل تدخـل فـي شـؤون أفغانسـتان الداخليـة، وأن تعترف باستقلال أفغانستان، وأن تبتعد عن كل ما يمـسّ اسـتقلال هذا البلد.

فـي سنة ١٢٨١هـ. ق «السير فردريك جولد سميـث» الـذى وُظّف لتأسيس خط التلغراف فـي جنوب إيران، فصل عن إيـران أقساماً من سيستان وبلوشستان، وحصل بالتدريج على امتيـازات فـي إيران.

من أجل الحصول على امتيازات بريطانية فـي إيران، لم تكـن

---

(١) ـ الفشاهي، مصدر سابق / ٤٣٩.

بريطانيا – على الظاهر – طرفاً مباشراً مع حكومة إيران، بل إن ذلك كان يتم عن طريق رجال أعمال بريطانيين وشركات تجارية بريطانية، بتوجيه ودعم من حكومة بريطانيا، وأحياناً بتهديد من هذه الحكومة، أو بإنفاق بضع ليرات ذهبية للخونة والغافلين .. وبهذه الطريقة كانوا يحصلون باستمرار على امتيازات، وتنتشر أخبارها في العالم، فتثير دهشة الرأي العام العالمي.

منذ أوائل العهد القاجاري، وبطرق مختلفة ملتوية، وذرائع شتّى، توغلوا في معظم الجزر الهامة في الخليج الفارسي وسواحل إيران الجنوبية، بمعاهدة تارة، واتفاقية تارة، وبالتهديد والقوة تارة أخرى.

في سنة ١٢٣٦هـ. ق أسسوا في جزيرة قشم معسكراً باسم مكافحة القرصنة البحرية، وبسطوا نفوذهم على شيوخ تلك النواحي التي كانت تابعة لإيران مثل: عمان والبحرين ومسقط والكويت، ودخلوا في اتفاقيات مع آخرين مثل شيخ المحمرة (خرمشهر حالياً) لتأسيس حكومات نصف مستقلة عميلة، كي يضمنوا سيادتهم البحرية في الخليج الفارسي، ويدفعوا ما قد يشكل خطراً على الهند، وليستفزّوا بين آونة وأخرى حكومة إيران ويثيروا الأتعاب بوجهها [١].

---

(١) ـ بينا، مصدر سابق / ١٧٧.

الهدف من ذكر هذه الوقائع والمعاهدات والحروب والهزائم إلقاء الضوء على الوضع الاجتماعي السياسي العسكري في إيران آنئذ، لنستبين عوامل مصائب الأمة، ونكتشف الجذور الفكرية لحركة المشروطة، ولنعرف الذين رفعوا عقيرتهم لأول مرّة مطالبين بالمشروطة، ونفهم كيف قامت هذه النهضة، وماهي الانحرافات التي واجهتها، وماهي طبيعة هذه الانحرافات.

عبد الرحيم طالب أوف

«.. بين مفكرى المشروطة يحتل عبد الرحيم طالب أوف مكانة هامة، ولد سنة ١٢٥٠هـ. ق في تبريز. وفي السادسة عشرة أو السابعة عشرة ذهب إلى تفليس واشتغل بالتجارة. وبعد بضع سنين جمع ثروة يعتد بها. وهناك تعلم اللغة الروسية جيداً. وتعرّف على آثار المفكرين الروس والفرنسيين. وبعد سنين من الإقامة في تفليس ذهب إلى«تمرخان شوره» مركز داغستان، وأقام فيها حتى آخر عمره أي حتى سنة ١٣٢٩ هـ. ق ..»[1].

كانت له مؤلفات في الحقول السياسية - الاجتماعية، وكان يكتب من المناطق المحتلة (من موضع رفاه كامل) وَصفاتٍ علاجية

(١) ـ فشاهي، مصدر سابق / ٣٩٠.

لإيران، ولنعرف مقدار معلوماته عن إيران (وطنه غير المألوف إليه)، لابأس أن نلقي نظرة على كتاباته من خلال مانقله السيد فشاهي:

«... لا أستعرض كل ماجاء في كتاب «مسالك المحسنين» بل أشير فقط إلى أن طالب أوف عرض في هذا الكتاب قصة خيالية ضمنها مشاكل الناس في إيران، لكنه ماكان ناجحاً في عرض هذه المشاكل لأسباب أولها أنه كان قد غادر إيران منذ صباه، ومعلوماته آنئذٍ لم تكن مكتملة عن إيران... معلومات الكاتب ناقصة حتى عن جغرافية إيران، فهو يتصور أن السفوح الجنوبية لسلسلة جبال البرز خضراء مغطاة بالأشجار مثل سفوحها الشمالية..»[1]، من الإنصاف أن نقول: إنه كان يرغب من كل أعماقه في إصلاح أوضاع الأمة في إيران رغم أن وصفاته لم تكن مجدية. وتبدو هذه الرغبة الشديدة جلية في النص التالي الذى يتحدث عن طالب أوف:

«.. الكاتب (طالب أوف) في حواره الخيالي مع المجتهدين يعترف بأحكام الإسلام، لكنه يقترح أيضاً أموراً حديثة مثل: نظام الجندية الإجباري، ومدّ سكك الحديد، وإصلاح الخط واللغة وتغيير الحروف الهجائية.. وحول الوضع السياسي يكتب قائلاً: لو

---

(١) ـ نفس المصدر / ٣٩٠، وانظر أيضاً: كسروي، مصدر سابق/٦٢.

كانت هذه الوزارات تقليداً للغربيين فأي بلد أوروبي وزيره أمّي؟! أي بلد فيه وزير بالاسم دونما إدارة؟ ! لماذا الاسم بدون مسمّى؟ وأين تجد مثل هذا الوضع؟ وزير العدل مثلاً شخص لا يعترف أصلاً بوجود علم الحقوق. يجلس في عمارة فخمة مع المساعدين والموظفين ليقضي بين الناس فيما اختلفوا فيه. لو كانت الأحكام في هذه الدائرة تصدر على أساس الشرع، فإن أصحاب الشرع منتشرون في جميع الأزقة يعرضون متاعهم ويبحثون عن زبون لعلمهم. ولو كان الحكم يصدر استناداً إلى قانون مدني، فأين مدرسة تعليم القانون في بلادنا؟ وأين هي مصادر قوانيننا الحقوقية؟ وإن لم يك ثمة شرع ولا قانون، فأساس العدل مايرتأيه الوزير وما يتخيله. في كل أنحاء إيران من الشرطي ابتداء وحتى الحاكم، الجميع يحكمون وفق رغباتهم وميولهم الشخصية. كلهم آمرون وحاكمون.. أي قاموس يسمّي جهاز الظلم والاستبداد عدلاً؟!»[(١)].

لو أمعنا النظر في النص التالي المنقول عن كتاب: مسائل الحياة لطالب أوف لرأينا أن الرجل يتألم من التخلف الصناعي والعلمي للإيرانيين، ويبحث عن العلاج، لكنه ينطلق في تقديم العلاج من تأثر بالهزيمة أمام الغرب ومن فرار من الذات والهوية

---

(١) ـ فشاهي، مصدر سابق / ٣٩٢.

يقول:

«... سألت من الآقا رضا (نموذج لعالم دين مؤيد للتغرّب) وهو رجل فاضل وشاعر، هل من جديد؟ قال: عندكم جامع المعقول والمنقول، فما الجديد عندي؟ قلت: لِمَ هذا التواضع وكسر النفس؟ عندك عشرة آلاف كتاب. كنز معلوماتك يكفي لاثراء عشرة علماء. قال: لا، أبداً، ماعندي أنا وأمثالي إنما هو ألسنة الأموات، أو معلومات سقطت عن حيّز الانتفاع، وأصبحت جزء من الأساطير. مايعلمه أحمد آقا (نموذج للتقدميين) ينفعه وينفع الآخرين. كل العالم بحاجة إلى هذه المعلومات.

ما نعلمه نحن يجب أن نكتبه على ورق من صنع أمة أخرى، وأن نقرأه بنظارة من صنع الغرب.

معلوماتنا كانت كافية حين لم تتسع احتياجات الناس كما اتسعت اليوم، وما كان من المتصور أن تزداد علاقات الشعوب إلى الدرجة التي هي عليه اليوم. لكن أحمد يستطيع أن يصنع من ترابنا أواني خزفية، ويصنع من صخورنا بلوراً، ومن رمال صحارينا زجاجاً، ومن قطن بلدنا وصوفه قماشاً نصنع منه عمامة ورداء، ومن النفط الاسود مواد مأكولة ومواد محترقة. يستطيع أن يخترق الأرض ويستخرج من باطنها ما أودعته الطبيعة في سُرّتها من ثروات تزيد الثروة العامّة. ماذا أقول؟ أنا منفعل من

معلوماتي. ما أعلمه هو أنـي لا أعلم شيئاً»[1] .

بعد حديث آقا رضا تصدّى له آقا عبد اللّه (في دور الرجعي المعارض للتقدّم والاصلاح) وردّ عليه[2]، ثم تدخّل أحمد وقال: «... إعلم أولا أن الحرب بين أبناء البشر أمر طبيعي، لا اصطناعي... الحروب وسفك الدماء في هذا العصر لايمكن مقارنتها بالعهود السابقة. كان الجرحى في الحروب السابقة يداسون تحت سنابك الخيل، ويصفّون الأسرى فيقطعون رؤوسهم، وحين يدخلون البلاد المفتوحة كانوا يذبحون أهلها ويهدمون دورها. أما الآن فتسير خلف المحاربين مجموعات من الأطباء والممرضات من النساء المسميات بالأخوات العطوفات، وتسير هذه المجموعات مع المقاتلين بأدوات الجراحة وأكواز الماء وأحمال الأدوية والسديات اللولبية لحمل الجرحى. ويضمدون المصابين تحت وابل الرصاص.. ولو كان المغلوبون عطشى أو جوعى يعاملونهم كضيوف أعزاء، فيطعمونهم ويسقونهم. وبعد ذلك يطلقون سراحهم مسلحين أو منزوعي السلاح حسب ما يعقد من

---

(١) ـ عبد الرحيم ابن الشيخ ابو طالب، مسائل الحياة (فارسي) / ٤٩، تفليس، مطبعة غيرت، ١٣٢٤ هـ . ق.

(٢) ـ يظهر من ردّ أحمد أن آقا عبد الله أثار مسألة الحروب الطاحنة التي يشهدها العالم الغربي المتطور (المترجم).

معاهدات. أو يرسلونهم إلى معسكرات الأسر، فيتعلمون هناك الصناعة والحرف، أو يمتهنون التدريس..».

حول الحرية وارتباطها بالإسلام انظروا إلى آراء طالب اوف: «..حكيم آخر يقول: من يستهدف إلى أن يموت فقد استهدف الحرية. من كان ينشد الحرية فلا يخشى الموت، أي لا يرضخ لأحكام الاستبداد وسلب الحقوق. من هنا كان شهداء كل أمة أحياء دائماً، وأيام ولادتهم ووفاتهم أياماً مباركة، ذلك لأنهم ضحوا بأنفسهم من أجل صيانة الحقوق والحرية، وعدم الرضوخ للمستبدين ، فأصبحوا أحياء خالدين. شهداء الجهاد في سبيل اللّه هم بمعنى آخر ينالون حياة خالدة واحتراماً خاصاً، فهم في حياتهم قد أدّوا مسؤوليتهم على أكمل وجه في مساعدة بني نوعهم وإضاءة طريق الحرية وحفظ الوجود لهم، وبعد وفاتهم سجلوا في صفحات التاريخ للأجيال دروس التشجيع على تحقيق تلكم الأهداف. ومهما كانت آثارهم الحميدة نافذة في الأجيال اللاحقة كان اسمهم حياً في النفوس.

ليست الحرية مثل سائر أقوالنا وأفعالنا مقدمة لشيء آخر، ليست مثل المشي لطيّ المسافة، والقراءة للحصول على معلومات، والأكل للتقوية، والقول لإيصال المقصود، والعبادة للتقرب إلى اللّه، والأدب لكسب المحبة، والكفاية لتحقيق الأهداف، والشجاعة لغلبة

العدو، والعدل لبسط السعادة والبركة و... ليست الحرية مقدمة لشيء آخر، الحرية من أجل الحرية. فالحرية مقدمة بدون نتيجة، أو نتيجة بدون مقدمة. إنها من الألفاظ المجردة. يقال إن الحياة من الألفاظ المجردة، لأن الحياة هدفها الحياة لاغير. لكن الحياة في اعتقادنا مقدمة للموت. أما الحرية فهي للحياة والممات على السواء، سواء في عالم الذرّ (أي عالم الذرّات) حيث الذرّات مطلقة غير مقيّدة بشروط وتكاليف، أو في عالم اتصال الذرات حيث الخضوع لقوانين اتصال الذرات وتكاليف المدنية أي الشرع والعرف...»[1] .

جذور الالتقاط في فكر طالب أوف

طالب أوف من طلائع الليبرالية والمشروطة في بلادنا. وفكره كما يلاحظ من النصوص السابقة يتجه إلى «إصلاح إسلامي» على الطريقة الغربية. وتظهر فيه بوضوح آثار الهزيمة تجاه العلوم الطبيعية وتجاه الحياة الأوربية. لو بحثنا عن جذور «الالتقاط» في تاريخ إيران المعاصر، لوجدنا في أفكار طالب أوف شيئاً كثيراً يساعدنا على تقصّي تلك الجذور.

---

(١) ـ عبد الرحيم.. مصدر سابق / ٩٤ ـ ٩٦.

إنه دون شك متأثر بالليبرالية ، وبحركة الإصلاح الديني الأوربية، ونعلم أن حركة الإصلاح الديني في أوربا استهدفت التحرر من أغلال الكنيسة وتعسّفها، ثم أعقب ذلك حدوث الثورة الصناعية في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ديكارت واسبينوزا كانا من المنادين بأصالة العقل، وتبع ذلك الدعوة إلى حرية الفكر وحرية العقيدة، وهاجم ميلتن جهاز تفتيش العقائد، وكل ذلك أدى إلى ظهور الحركة الفكرية الكبرى في القرن الثامن عشر الميلادي في أوربا وأمريكا. وكان من رموز هذه الحركة فولتير وروسو وديدرو ومونتيسكيو وكوندروسي في فرانسا. وكانْت وغوته وليسينغ في المانيا. وهيوم ولاك وآدم سميث في بريطانيا. وجفرسن وفرانكلين في أمريكا[1]. هؤلاء المفكرون والفلاسفة ثاروا ضد الإقطاع والاستبداد وقدرة الطبقة الارستقراطية والكنيسة ورجال الدين. وهذه الحركة اتحدت مع الطبقة المتوسطة النامية في مجتمعات أوربا الغربية وقامت بالثورات السياسية في بريطانيا وأمريكا وفرنسا. اتحاد الحركة الفكرية الإصلاحية والطبقة المتوسطة أوجد الليبرالية بأصولها وأفكارها الأساسية.

النواة الأصلية لليبرالية هي الحرية، وأساسها الحرية الفردية.

---

(١) ـ مصاحب، مصدر سابق / ٢٥٤٢.

فالفرد حرّ فـي التفكير والعقيدة وحق انتخاب الحرفة وحق إنجـاز المعاملات والاشتراك فـي الحكومة عن طريــق انتخـاب الحــاكم، ويعتقـد الليـبراليون أن هـذه الحقـوق ناشـئة عـــن «الطبيعـــة» والحكومات مكلفة بحمايتها. وكمــا أن عــالم الطبيعـة يقـوم علــى أساس قوانين الطبيعة كذلك نظام المجتمع وحقوق الأفراد يجــب أن تقوم على أساس قوانين الطبيعة ! ولما كانت قوانين الطبيعة واحـدة فـي الظروف المتشابهة، فإن الحقوق الناشئة عنها للأفــراد واحـدة أيضا فـي كل مكان. وهــذا يعنـــي رفـض الطبقيـة والامتيـازات الطبقية وتساوي الجميع أمام اللّه والطبيعة ويستلزم ذلك رفض كل الامتيازات والاختلافات الدينية.

من هنا فان معيار صحة المؤسســات الاجتماعيـة ليـس هـو الدين، بل مقدار ماتحققه من سعادة الأفراد وراحتهم. وبموجب هذه النظرة تترك التقاليد والعادات والرسوم القديمة مكانها للسـعي مـن أجل رفاه الانسان، أو بعبارة أخرى لتقدم المجتمع وتطوره . رفـض التقاليد والمؤسسات القديمة نتيجة طبيعية للايمان بــالحقوق الناشـئة عن القوانين الطبيعية، لأن الطبيعة خيّرة، والمؤسسات غير الطبيعيــة تدفع بالمجتمع تدريجياً نحو الانحراف والشرّ، ومن هنــا فــان النظـام الطبقي والامتيازات الارستقراطية التــي هي جميعاً وليـــدة التقــاليد القديمة، شرٌّ وعائق للإنسان على طرق سعادته، ولابد من قطع يـد

«الماضي» عن المجتمع، وترك الطبيعة لحالها كي تسير الأمـور نحـو الأفضل.

الليبرالية متفائلة وتعتقد أن طبيعة الإنسان خـيّرة، لكـن هـذا الإنسان يحمل الحرص والشهوة وحبّ الجاه والسلطة. ولابـدّ مـن العمل على أن لاتفرض الأكثرية سلطتها على الأقلية. من هنا لابدّ من فصل السلطة التقنينية عن السلطة التنفيذيـة، وفصـل السـلطة القضائية عن كلا السلطتين، ليتم التعادل والتوازن بين السلطات(١).

طالب أوف - باعتباره مهاجراً إيرانياً مقيماً فـي القفقـاس - تحدُثُ فـي ذهنه عادة مقارنة بين الأوضاع فـي إيـران وروسـيا، ومن الطبيعي أن يحسّ بالألم تجاه تخلف الشعب الإيرانـــي ولذلـك راح يفكر فـي العلاج ويكتب وصفة الدواء.

كان القفقاس يومئذ يموج بالأفكار المختلفة والمدارس الفكريـة المتباينة، ومن هنا نرى فـي أفكار طالب أوف نوعاً مـن التشـتت، لكن الليبرالية أكثر تأثيراً عليه. فهو يرفض القديم ويعتـبره ألسـنة الأموات(٢). ويعرّض بعلماء الدين وعلومهم. وفـي ذلك يتقمّـص شخصية مارتن لوثر ويقلّد أصحاب الإصلاح الدينـي الأوربيـين. كما نشاهد فـي موضع آخـر انبـهاره بالانسـانوية الغربيـة، حـين

---

(١) ـ مصاحب، مصدر سابق / ٢٥٤١.

(٢) ـ انظر: جواب آقا رضا المذكور في حوار : مسائل الحياة.

يتحدث عن قوانين الحرب فـي عالمنا المعـاصر ويقارنهـا بحـروب الأزمان السالفة ويشير إلى قوانين معاهدة جنيف فـي التعامل مـع أسرى الحرب. ويلاحظ أنه يسـتعمل كلمـة الأخـوات الحنونـات للممرضات، وهي ترجمة لكلمة «Sister» الإنجليزية، وهكـذا فـي كل عبارات طالب أوف نشاهد هذا الانبهار بـالغرب. لقـد خلـب بريق الغرب أنظارهم. تماماً مثل شخص يتعرّض فجأة لنور قـوي، فيُخلب بصره، ويرى كل شيء حوله ظلاماً لفترة معينـة، ثم يحـسّ بأن بريقاً كاذباً يسطع فـي عينيه باستمرار حتى ولو أغمض عينيه. وهكذا شأن رهط «منوّري الأفكار» فـي إيران. خلبـهم مـا رأوه وما سمعوه وما أوحى إليهم الشـياطين، فتـأثروا وشُـغفوا وراحـوا يصفون العلاج لشعوب الشرق متمثلاً فـي تكرر تجربة الغرب.

مأساة الانبهار

إحدى مآسينا الكبرى فـي القرن الأخير تتمثل فـي انبـهار طلائع الحركة الفكرية فـي شرقنا الإسلامي بـالغرب ، لانبـالغ إذا قلنا أن أساس الاستعمار الجديد Neocolonialism فـي بلدان العـالم الثالث يتمثل فـي هذا الانبهار الذي خلب الألباب والعقول. الفكـر الليبرالـي والانسانوي والاشتراكي والشيوعي ظـهر فـي الغـرب نتيجة ظروف اقتصادية واجتماعية وسياسـية خاصـة بالمجتمعـات

الأوربية والأمريكية، وهذه الأفكار منسجمة تماماً مع أرضية تلك البلدان بملابساتها الخاصة. ولكن حين تنقل هذه الأفكار لتُقحم في مجتمعات ذات هوية قومية وفكرية ونفسية وجغرافية وتاريخية مختلفة كل الاختلاف عن هوية المجتمعات الغربية فان ذلك لايعني سوى المسخ الثقافي وتزلزل أُسس هذه المجتمعات.

هذه الوصفات العلاجية المترجمة من الغرب تذكرني بما رواه لي أحد أقاربي. فقد ولد له قبل ستين عاماً طفل أصيب برمد في العين. ولم يكن في قريتنا «رستم آباد» طبيب فأخذوه إلى الطبيب الوحيد الموجود في «تجريش» آنئذٍ، وكتب له هذا الطبيب وصفة تتضمن قطرة من المحتمل أن تكون من قبيل «السلفاميد» التي بدأت تشيع يومئذ، وبعد ذلك كان كل من يشعر بألم في عينيه يأتي إلى بيت هذا الرجل ويأخذ منه الوصفة للاستفادة منها.. حتى تمزقت هذه الوصفة من كثرة الاستعمال، وألصقوها بالشريط ، يظهر أن المقلدين لايؤمنون بوجود ارتباط بين الأمور. ما إن سمعوا بوصفة لعين مصابة حتى راحوا يقلدونها، دون تفريق بين أنواع مرض العين وخصائصها المميزة.

وكان للمستشرقين دور هام في نشر روح التقليد هذه، وفي تقديم الوصفة قبل أن يطلبها الشرقيون منهم.

يلاحظ من أفكار طالب أوف أنه يركز على محور ركز عليه

كل المهزومين أمام مادية الغرب، وهو إفراغ الإسلام من محتواه الغيبي، ويحاول تفسير كل تشريعاته تفسيراً فيزيائياً محسوساً.

لقد كانت مساعي هؤلاء «المصلحين» تتجه دائماً إلى جرّ الإسلام نحو مابهرهم من فكر وخلب أنظارهم من تيار. إذ استولى على أدمغتهم التيار الليبرالي والحرية الفردية، يهتمون بتفسير القرآن والسنة لتنطبق مع هذا التيار، وإن بهرتهم الماركسية يعكفون على وضع نصوص الدين في قوالب المادية التاريخية.. وهكذا تراهم أحياناً يعربون عن حرصهم على بقاء الدين بمثل هذه الأعمال الالتقاطية. حتى كأن خلود الإسلام يتمثل في تحوّله المستمر وفق مشتهيات أصحاب المدارس الفكرية المختلفة !!

أمعن النظر في أقوال طالب أوف بشأن الشهادة والشهيد، تراه يسلب من عملية الاستشهاد طابع العمل في سبيل إعلاء كلمة اللّه ومحاربة أعداء اللّه، ويجعلها عملية نضال اجتماعي سياسي كنضال أصحاب المدارس الفكرية المادية الأخرى لا أكثر ولا أقل. وخلودهم ليس بسبب ما وفّره اللّه لهم من كرامة، بل بسبب جسيم الأعمال الحميدة التي أدّوها للأجيال.

وانظر إلى حديثه عن عالم الذرّ، وهو العالم الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا

يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾[1] .

فيفسّره بأنه عالم «الذرّات» ، وهو تفسير ينمّ عن هذه الهزيمة النفسية أمام المكتشفات العلمية والمادية والفيزيائية[2] .

ميرزا مَلْكُمْ خان وارهاصات المشروطة

يحتل ميرزا ملكم خان مكانة هامة في أحداث تاريخ الحركة التقدمية والإصلاحية قبل المشروطة وفي عمليات التمهيد الفكري للمشروطة، ويندر أن نجد شخصاً يرقى إلى مستوى نشاطه في نقل مفاهيم الانسانوية والديمقراطية والبرلمانتارية إلى مجتمعنا. وكان إلى هذا من أكثر الشخصيات السياسية إثارة للجدل في القرن الأخير. والآراء بشأنه متناقضة جداً، بعضها أوصلته إلى أعلى عليين، وبعضها أنزلته إلى أسفل سافلين. «ظِلُّ السلطان» حاكم أصفهان يكتب حوله قائلاً :

«.. هذا الشخص من نجباء إيران. عائلة ملكم مشهورة في

---

(١) ـ الأعراف / ١٧١.

(٢) ـ مثل هذه التفسيرات الفيزيائية والمادية لآيات الذكر الحكيم، أو لأحداث الدعوة الإسلامية شاعت في العالم العربي أيضاً خلال فترة معينة، وطالت شخصيات اسلامية كبيرة من أمثال محمد عبده، انظر تفسير جزء عمّ ـ سورة الفيل للشيخ محمد عبده (المترجم).

إيران ومعروفة. كان الفيلسوف الأول، والمعلـم الأول. إنـه – دون مبالغة – مثل أرسطو وأفلاطون. بل إنه يفوقهما بـألفين أو ثلاثـة آلاف سنة من المعلومات التـي ظـهرت بعـد عصرهمـا. ذو كمـال فائق، وذو قدرة على عدة لغات أجنبية، كان أستاذاً فـي الفرنسـية والانجليزية وغيرها. قلّمـا يبلغـه أحـد فـي قـوة قلمـه وقـوة عسكريته، واذا بلغه فلا يفوق عليه..»[1].

ويقول محمد حسن اعتماد السلطنة عنه:

«ملكم عالم بدون عمل، وزنبور بدون عسل، ومتصف بصفات الرذيلة. لايمكن إنكار قدرته البولتيكية. حين لايكـون لـه غـرض ومرض فهو ناصح جيد، وموجّه مـاهر. ولكـن حـين تكـون ثمـة مصالح شخصية، أو تلوح فـي الأفق مصلحة ، فان علمه يتلاشـى كعمله..»[2].

ولما كـان كثير مـن المسـؤولين ودعـاة التقدميـة والإصـلاح والديمقراطية على ارتباط مباشر أو غير مباشر بالميرزا ملكم خان، وأن اسمه مدرج فـي عدد من الاتفاقيـات المثـيرة المخزيـة فـي العصر القاجاري وخاصة فـي عصر ناصر الدين شـاه، فانـه مـن

---

(١) ـ ملكم خان، مجموعة آثار (بالفارسية)، طهران، دانش، ١٣٢٧ (مقدمة محمد محيط طباطبائي)..

(٢) ـ نفس المصدر (المقدمة).

الضروري أن نقف عند ترجمته ومؤلفاته.

«ملكم ابن ميرزا يعقوب الأصفهاني ولد سنة ١٢٤٩هـ. ق في مدينة جلفا موطن الأرمن جوار نهر زاينده (زاينده رود). ميرزا يعقوب سافر في شبابه إلى خارج إيران وتعلّم اللغتين الروسية والفرنسية، وتعرّف قليلاً على أوضاع العالم الجديدة».

يبدو أن ميرزا يعقوب ترك دين آبائه واعتنق الإسلام وأرسل ابنه ملكم منذ صغره إلى أوربا للدراسة. فأنهى الدراسة الابتدائية والثانوية في إحدى مدارس الأرمن بفرنسا ثم التحق بمعهد التكنولوجيا في باريس.

.. ميرزا آقا خان استخدم ملكم في دار الفنون مترجماً لدروس الأساتذة الأوربيين ولتدريس الجغرافيا والعلوم التمهيدية.

.. ميرزا ملكم خان تعرف على العلوم الطبيعية في فرنسا، وأدى بعض التجارب في طهران، منها أنه قام لأول مرة بتجربة مدّ خط تلغراف بين مدرسة دار الفنون وقصر الشاه، واعتبر لذلك أول ناقل للتلغراف من أوربا إلى إيران.

هذه التجارب المستمدة من الخواص الفيزياوية والكيمياوية للمواد، كان يجريها ملكم داخل المدرسة وخارجها، وكانت بالنسبة لأهل ذلك الزمان جديدة وغريبة، ولم يكن يعرف أحد عللها وأسبابها كما ينبغي. ولذلك كانت توحي إلى الأذهان الساذجة

بأنها من الخوارق ومن أعمال السحر والشعوذة..»[1].

«في قضية إيفاد فرخ خان أمين الملك إلى باريس لعقد اتفاقية السلام مع باريس، كان الميرزا ملكم خان مترجماً ومستشاراً مرافقاً للوفد، وأبدى لياقة وكفاءة ملفتة للأنظار، ونال درجة من الترفيع.

بعد عودته من باريس نظّم رسالة تحت عنوان: كتيّب الغيب، وقدّم فيه مقترحات لإصلاح الأمور، عرض فيه أصولاً وقواعد لما كان يسمى في الدولة العثمانية باسم «التنظيمات»، وأرسله إلى ناصر الدين شاه عن طريق جعفر خان مشير الدولة..»[2].

يجدر أن نسمي الميرزا ملكم خان أبا الماسونية في إيران. فهو أول من أسس محفلاً ماسونياً في إيران خلال سنتي ١٢٧٦ و١٢٧٧ هـ. ق، ولم يكن له طبعاً ارتباط بالمحافل الماسونية البريطانية والفرنسية. بعد فترة قصيرة أساء الشاه الظنّ بهذا النشاط، فصدر بيان حكومي نشر في الصحيفة الرسمية يهدّد كل من تسوّل له نفسه أن يتحدث عن مثل هذه المحافل «الدنيئة». ونُفي ملكم عقب ذلك إلى بغداد، وفي بغداد رُفع عنه تقرير إلى

---

(١) ـ فشاهي، مصدر سابق / ٤٣٩. وهذا يذكرنا بما كتبه الجبرتي عن مثل هذه الظواهر إبان حملة نابليون على مصر (المترجم).

(٢) ـ آدميت، مصدر سابق / ٩٧.

الباب العالي العثماني يقول: «هذا الشخص رجل مفسد، ووجوده في عراق العرب يؤدي إلى الإخلال بالأمن». فاضطر إلى أن يلجأ إلى الميرزا حسين خان مشير الدولة سفير إيران لدى إسلامبول.

وهذا الأخير توسط لدى الشاه فعفا عنه وعيّنه مستشاراً للسفارة في إسلامبول.. بعد مدة أقدم «ميرزا سعيد خان مؤتمن الملك» وزير الخارجية، الذي لم تكن علاقاته حسنة بملكم خان، إلى قطع مرتّبة الشهري، وضيّق عليه، فاستقال ملكم خان من خدمة الحكومة الإيرانية، وتقدم بطلب وظيفة في البلاط العثماني، فوظّفه «عالي باشا». توسط ميرزا حسين خان مشير الدولة ثانية وأعاده إلى منصبه السابق، وبقي حتى سنة ١٢٧٧هـ. حين أصبح ميرزا حسين خان رئيساً للوزراء في إيران، استدعى ملكم وعيّنه مستشاراً لرئاسة الوزراء، ومنحه لقب «ناظم الملك»، ومنذ ذلك الوقت علا كعبه في البلاد[1].

في سنة ١٢٩٠ حين رتّب ميرزا حسين خان رئيس الوزراء زيارة ناصر الدين شاه إلى أوربا، كان قد أرسل قبل ذلك ملكم إلى لندن بسمة وزير مختار، ليعدّ مقدمات هذه الزيارة. في سنة ١٢٩٥، بسبب ما أبداه ملكم من حنكة في قضية الاختلاف بين

(١) ـ فشاهي، مصدر سابق / ٤٤١.

إيران والدولة العثمانية، وما فعله فـــي كســب دعــم «بســمارك» رئيس وزراء ألمانيا لاسترداد منطقة «قطور» من العثمـــانيين، نـــال تقديراً، وارتقى إلى منصب سفير كبير، ومنح لقب «پرنس»، ولقب سنة ١٢٩٩ «ناظم الدولة».

ملكم تولى سفارة إيران فـي لندن خلال الاعوام مـــن ١٢٩٠ إلى ١٣٠٦ حيث كانت واقعة منح امتياز «لاتاري».

وبعدها عُزل من كل مناصبــه وألقابـه الحكوميـة، واسـتدعي للمحكمة فـي بريطانيا فـي قضية اختلاس . وحـين كـان عـاطلاً عن العمل كتب عدة رســائل يلتمـس فيـها البـلاط أن يعـاد إلى منصبه. وحين يئس من العودة ثار ضد البــلاط، وأصـدر صحيفـة «قانون» ولم يأل على صفحاتهـا جـهداً فـــي ذم حكومـة إيـران والحديث عن فساد وزراء ناصر الدين شاه. بقي معزولاً مدة عشر سنوات أمضاها فـي أوربا. وفـي سنة ١٣١٦ عين على عهد مظفر الدين شاه سفيراً كبيراً لإيران فـي روما. وتولى هذا المنصب مـــدة عشر سنوات. وفـي سنة ١٣٢٦ أي بعد سنتين من قيام المشـروطة توفـي فـي السويس وهو فـي الثانية والسبعين من عمره.

«خان ملك ساسانـي» الذي كان من المشاركين فـي مراسـيم دفن ملكم يقول: «حسب وصيته نُقل إلى مدينة بيرن حيث جـهاز حرق الأموات، ووضع رماد جسده فـي جرّة لتسليمه إلى الورثـة.

وبنات ملكم اللائي كن يعملن ممرضات في مستشفيات بريطانيا هُرعن إلى مدينة لوزان حين سمعن بوفاة والدهن. وكان ملكم قد سلّم بناته الوثائق المالية منها وثيقة لاتاري بمبلغ أربعين ألف جنيه التي تحمل على ظهرها مناصب وألقاب وخدمات وتأليفات والدهن.

«أبو القاسم خان ناصر الملك قراگوزلو» الذي كان محمد علي شاه قد نفاه إلى أوربا حضر التشييع مع جمع من أصحابه الماسونيين وعدد من الإيرانيين ، وكاتب هذه السطور (خان ملك ساساني) كان حاضراً أيضا في المراسم».

تظاهر ملكم بالإسلام

رغم كل ماكان يبديه ميرزا ملكم خان من احترام وإجلال للإسلام، فان سلوكه الشخصي ينمّ عن عدم إيمانه بالإسلام.

كانت طريقته أن يتعامل مع الإيرانيين الأحرار، أو ضعفاء العقيدة المتهورين بإعزاز وإكرام، ويحوّل أفكارهم في اتجاه أهدافه السياسية.

كما ذكرنا من قبل، كان ملكم خان من زعماء المشروطة على الطراز الغربي، وكانت له علاقات وثيقة مع كثير من مثقفي زمانه، وكان هؤلاء المثقفون يعتبرونه شيخهم ورائدهم.

«.. كان بيته محل اجتماع زمرة من العناصر المشبوهة وغير المؤمنة. كانت هذه طريقة ملكم منذ سنين خلت، يتعامل مع الإيرانيين التحرريين أو غير المؤمنين المتهورين مثل الشيخ محمد باقر بواناتي (معلم ادوارد براون في الفارسية) وحاج پير زاده وأمثالهم بإكرام وإعزاز، ويدفع بأفكارهم نحو أهدافه السياسية...».

كانت له علاقات حميمة مع ميرزا فتح علي آخوندزاده الذي ذكرناه سابقاً:

«ملكم خان بعث برسالة «الشيخ والوزير» إلى آخوندزاده فأثنى هذا الاخير على ملكم كثيراً، وكتب له يقول: لو لم تكتب لي هذه الرسالة لمتّ همّاً... كل من ألقاه لا أتركه حتى يقرأ هذا الكتيّب» [1].

«... شجّع ميرزا حسين خان مشير الدولة على إجراء الإصلاحات وقال له: هذه التدابير الجديدة.. لايستطيع أن يقوم بها أحد في إيران إلاّ جنابكم الأمجد. أعلم أنها تحتاج إلى جرأة وهمة كبيرتين، لكنه على ذمّة ذلك الجناب الأشرف أن تكون لكم مثل هذه الجرأة والهمّة. مم تخافون ؟ لو أن جنابكم العالي أيضاً تخشون من لغط عدد من الجهال الجياع، أو من شماتة نفر من

---

(١) ـ نورائي، تحقيق در افكار ميرزا ملكم خان (بالفارسية) / ١٠٢، تهران جيبي، ١٣٥٢..

العلماء الجهلة وتتركون في هذه الفرصة الكبرى مصلحة الدولة، فما الفرق إذن بين الهمّة السامية وبين الضعف والذاتيّة؟»[(١)].

«.. ملكم ترك الحديث لمدة سنة تقريباً عن الإصلاح والتقدم، وقطع مراسلاته مدة مع أصدقائه. فكتب له أمين الدولة كتابة إخوانية قال فيها: حقاً أنك أسأت في تركنا بالمرّة. وأنا أيضاً عناداً لك قد امتهنت البطالة، لا أكتب ولا أتحدث، وليس لي شأن بالبروگرس (التقدم) ولا بالسيفيلايزيشن (المدنية).. وفي الرسالة التالية كتب جاداً: أنا بحاجة ماسّة إلى كتاباتك، فلا يحرّكني شيء ولا يهيّجني شيء سوى كتاباتكم..»[(٢)].

«... ميرزا آقاخان كرماني من ذوي الشأن والهمّة بين أعوان ملكم. جهد كثيراً في توزيع صحيفة القانون، وكان يرسل أخباراً ومعلومات لدرجها في الصحيفة...»[(٣)].

ملكم طرح بصراحة موضوع: السلطنة المشروطة، وموضوع: مجلس الشورى الوطني، فيما كتب من مقالات بعد سنة ١٣٠٠ هـ. ق. في سنة ١٣٠٢ ألف كتيّباً حول «القوانين الأساسية في البلاد والقوانين الإدارية للمملكة». يكتب ميرزا محمد علي خان

---

(١) ـ نفس المصدر / ١٠٢.

(٢) ـ نفس المصدر / ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٣) ـ آدميت، مصدر سابق / ١٤٨.

فريد الملك كاتب السفارة الايرانية في لندن في مذكراته اليومية (١٦ شعبان ١٣٠٢): يبدأ هذا الكتيّب بالعبارة التالية: «في البلدان المنظمة يوجد نوعان من القوانين. أحدهما قوانين أساسية للدولة، والأخرى قوانين إدارة المكلة، ثم بعد ذلك يشرع ببيان السلطنة المشروطة والسلطنة المطلقة».

كان ملكم يعتقد أن المجلس الحكومي الإيراني الذي تأسس على عهد ميرزا حسين خان (قائد الجيش) لو أدّى عمله بشكل واقعي لقدّم خدمات جُلى في تطوير حكومة القانون. كان رأيه أن هذا المجلس يمكن أن يكون مركز نظم جديد في إيران..

وبشأن انفصال السلطة التشريعية عن التنفيذية في الحكومة البرلمانية يقول ملكم: أية حكومة تريد أن تعيش في كنف الأمن المالي والروحي لابد أن يكون لها مجلس قوانين. حتى لو أن جميع القوانين القديمة قد حُفظت بشكل صحيح، فإنه يستوجب أيضاً أن تظهر كل يوم قوانين وقواعد جديدة بسبب تطور وسائل الحياة مثل القطارات والتلغراف وتأسيس الشركات ومواقع الحدود وتنظيم الأفواج وآلاف المسائل الأخرى. وبفضل اللّه أصبح من الواضح الجلي في هذا العهد أن ترتيب مجلس للقوانين بمقتضى حكمة المدنية، وأيضاً بحكم الشرع الإسلامي المقدس في إيران أيسر من أي مكان آخر، وأكثر ضرورة من أي تدبير آخر. تنفيذ

القوانين يحتاج إلى جهاز يسمى في البلدان الأخرى بهيئة الوزراء.

وفي ترتيب هيئة الوزراء من الناحية القانونية يجب أن يكون الوزراء مسؤولين أمام مجلس تشريعي مسؤول. الوزراء يجب أن يكونوا في خدمتهم الحكومية متشاركين ومتضامنين في أقوالهم وأعمالهم، بحيث لو أن أحدهم ارتكب خطأ أو خيانة فإن كل الوزراء مثل وجود واحد يعزلون دفعة واحدة...».

موضوع الحكومة البرلمانية وتأسيس مجلس الشورى ورد بإجمال في صحيفة «قانون»... أطلق ملكم أسماء مختلفة على البرلمان منها: مجلس القوانين، ومجلس الشورى الوطني الكبير، ومجلس وكلاء الشعب، مقابل مجلس الأقطاب [1].

في صحيفة قانون (رمضان ١٣٠٩) يقول باختصار: «باقتضاء قرار مطلق، تشخيص القوانين وتدوينها واستقرارها يجب أن يكون إلزاماً باستشارة ومصادقة المجلسين. أحدهما مجلس وكلاء الشعب الذي ينتخبه الشعب، والآخر مجلس الأقطاب المكون من فضلاء وكمَلَة القوم».

ويوضح ملكم مهمة مجلس الشورى الوطني في صحيفة قانون (ذي الحجة ١٣٠٧): «لابد من جمع مائة من المجتهدين

(١) - نورايي / ٢٠٧.

الكبار والفضلاء العظام والعقلاء ذوي المعرفة من الإيرانيين في عاصمة الحكومة في مجلس شورى وطني، وإعطائهم الصلاحيات الكاملة لتعيين وتدوين وإعلان تلك الأصول والقوانين التي تلزم على الأقل لتنظيم إيران.

وثانياً، أنْ توكلَ لمجلس الشورى الوطني وفق قرار مدوّن مهمة المراقبة والإشراف على تنفيذ القوانين. وبدون وجود مجلس وطني يراقب دائماً تنفيذ القوانين، فإن أفضل قوانين الدنيا تبقى دونما أثر ومعنى. لو أن الشاه كما يقول مراراً يرغب حقاً في إحلال النظم في إيران، فلماذا لايسرع في عقد مجلس الشورى الوطني هذا؟ ثم إنه - كما قال الشاه نفسه مراراً - لاتكفي رغبة الشاه وحدها لتنظيم الحكومة. نفس الشعب يجب أن يتحلى بدرجة من الوعي تؤهله للمطالبة بالقانون.» [1].

ميرزا ملكم خان من أولئك الأفراد الذين قيل فيهم: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. كثير من مثقفي القرون الأخيرة - إلا قليلاً - أغدقوا عليه الثناء، وأصبح بين أبناء عصره من المثقفين كعمر بن أبي ربيعة بين غانيات زمانه. كانت له علاقات وثيقة وحميمة مع كثير من المتجددّين والمتغربين في عصره، ولكن

---

(١) ـ آدميت، مصدر سابق / ١٤٩.

التدقيق في تفاصيل حياته تميط اللثام عن حقيقة زيفه. رغم ماكان يبديه من احترام للإسلام، يظهر من ارتباطاته الشخصية وسلوكه أنه لم يكن يؤمن بالإسلام.

ننقل في هذا المجال ماكتبه الدكتور نورائي[1]:

«.. ذكرنا سابقاً في شرح عقائد ملكم أن العلوم التجريبية مقدمة لتحرر المجتمع الغربي من القيود. وبعد نضال دام طويلاً فُصل منهج التقدم العلمي عن خرافات القساوسة، وبذلك اقتربت الحضارة الأوربية من المرحلة العلمية. وملكم يطرح موضوع عدم بلوغ المجتمعات غير الأوربية المرحلة العلمية، ولابد من إعداد أرضية التقدم لهذه الشعوب بترويج التفكير العلمي. ولما كانت المعتقدات الإيمانية في هذه المجتمعات راسخة فلا يجوز مهاجمتها، لأن ذلك لايساعد في دفع عجلة التقدم ، بل سيزيد في مقاومة المؤمنين بها.

من هنا فان ملكم في حديثه إلى آخوندزاده يؤكد أن الإرشاد والتوجيه والتعليم «لسكنة المملكة العثمانية وإيران والقفقاس الذين يدينون بأحد الأديان الثلاثة: الإسلام والنصرانية واليهودية، ينبغي أن لايبدأ بالانتقاد الديني». «واعلم ياميرزا فتح

(١) ـ نورايي، وآدميت، وفشاهي، وبينا .. ممن ينقل عنهم الكاتب هم من أنصار (التقدمية) بمفهومها الغربي.

علي أنك لاينبغي أن تتعرض لدين أحد، ولايجوز أن تقول لـه: إن اعتقادك باطل وأنت ضال... فبهذه الطريقة الجافة سوف تخلق لـك آلاف الاعداء والشاتمين، ولاتحقق ماتصبو إليه.

كل واحد من هؤلاء سوف يواجهك بلجاج وعناد ويدعـي أن كلامك خاوٍ ودلائلك باطلة، فتذهب أتعابك هدراً. لمـاذا تتعـرض لدينهم؟ دعك عن دينهم ولا تتحدث عـن بطلانـه». ملكـم فـي عبارته هذه يذهب - دون شك - مذهب عـدم الإيمـان بمـا وراء الطبيعة، ويعتقد أن ماهية الأديان واحدة. وهو - فـي نفس الوقت - فهم المنطق الأخلاقي للأديان ويقول: «كل دين يتضمـن ثلاثـة أمور مختلفة: العقائد والعبادات والأخلاق. والهدف من الديـن هـو الأمر الثالث. والعقائد والعبادات فرعان لذلـك المقصد الأصلـي... ولو عثرنا على وسيلة تجعلنا أصحاب أخلاق حسنة دون افتراض مستوجب التعظيم والتعبّد، عندئذٍ سقط عنّا ذالكما الفرعـان وهمـا العقائد والعبادات» (1).

ملكم يُكثر من ادعاء التحررية والتقدمية، لكنـه فـي حياتـه العملية يبدو رجلاً ضعيفاً راسفاً فـي أغلال المال والمتاع، كتب مـن خارج إيران حين تعرّض لسخط الشاه يقول:

(1) - نورايي مصدر سابق / ٤٦ - ٤٧.

«والّله وباللّه أنا طوع يدكم، أأمروني بما تريدون، فأنا راضٍ بأي حال من الأحوال، أللهم الاّ البطالة، حتى البطالة أقبلها لو توفرت لي معيشتي اليومية. ولكن لو أريد لي أن أبقى عاطلاً وجائعاً فذلك مالايكون، لو أنني اشتغلت بالشعوذة فإني سأكسب سنوياً ٧ - ٨ آلاف تومان. ولو أسست محفلاً ماسونياً لعاد عليّ ٢٠ - ٣٠ ألف تومان سنوياً..».

♑ ♑ ♑

معاهدات الخيانة

دور ملكم فـي معاهدة الخيانة

ملكم خان كان له الدور الأساس فـي عقد معاهدتين مُذلّتـين بين الحكومة القاجارية وبريطانيا، وهما معـاهدة «رويـتر»، ومنـح امتياز «لاتاري».

معاهدة «رويتر» واحدة من أفظع وأخـزى المعـاهدات فـي تاريخنا السياسي. ربما قيل إن أفظعها معاهدات «تركمـان چـاي» و«گلستان» و«پاريس» . لكن المعاهدات الأخيرة فُرضـت فـي الواقع نتيجة ضغوط عسكرية على حكومة فقدت المقاومـة أمـام المعتدين بسبب فسادها الداخلي. أما معاهدة «رويتر» فقد عقـدت نتيجة الأطماع الدنيوية الرخيصة ونتيجة انغماس الحكام الفاسدين فـي المجون والتحلّل. ولميرزا حسين خان سبهسالار[١] يد آثمة فـي هذه الخيانة، وهو الشـخص الـذي يثنـي عليـه أحمـد كسروي وفريدون آدميت وكثير من الكتاب «المثقفين» ويصفونه بأنه رجـل إصلاح وتقدّم !!

---

(١) ـ سبهسالار: تعني قائد الجيـش، أو صـاحب الجيـش. ومـيرزا حسـين خان نال منصب الصـدارة العظمـى (رئاسـة الـوزراء) في زمـن نـاصر الدين شاه (المترجم).

يقول أحمد كسروى[1]:

«.. فــي عصره دار الحديث حول مدّ السكك الحديدية، ومنح (امتياز) مدها للبريطانيين، ولم نَعِ نحن أبعاد هذا القرار. هذا الرجــل (الطيب) أراد أن يفتح عيون الشاه على الوضع فــي أوربا، وعلـــى التحام الحكام بالشعب، وعلى التطور الذي حققــوه، ليكســبه بعـد ذلك إلى أفكاره بشأن تطوير إيــران، لقـد رأى أن أفضــل ســبيل لذلك أن يأخذه معه إلى أوربا، ومــن هــذا المنطلـق توجـه الشــاه وسبهسالار إلى أوربا سنة ١٣٥٢هـ لكن هذه السفرة كــانت لها تبعات سيئة، وهي أن الساخطين على سبهســالار اغتنمـوا فرصـة غيابه عن إيران، فأوحوا إلى رجال الدين أن سبهسالار يريــد أن يجعل من إيران بلداً غربيــاً، وأن يمنـح امتيــاز ســكك الحديـد إلى الانجليز. ورجال الدين ومنهم «سيد صالح عــرب» و«حــاج مـلا علي كنــي» وآخرون اهتزوا لسماع هــذا النبــأ، وهبّـوا لمعارضـة سبهسالار، واعتبروه خارجا عن الدين . وكتبوا إلى نـــاصر الديـن شاه أن يترك سبهســالار، وأن يعـود إلى طـهران بدونـه. وصلـت الرسالة إلى الشاه وهو فــي مدينة رشت. وبسبب قوة رجال الدين آنذاك، اضطر الشاه أن يوكل حكومة جيلان إلى سبهسالار، ويعود

(١) ـ أحمد كسروي من دعاة التغريب في إيران، ومن المنــادين بتطـهير !! اللغة الفارسية من المفردات العربية (المترجم).

بدونه إلى طهران..»[1].

ويقول الدكتور فريدون آدميت:

«.. ميرزا حسين خان، بهدف إحياء الاقتصاد وإعمار إيران، منح امتياز مدّ سكك الحديد في إيران من رشت إلى طهران ومن العاصمة إلى الخليج الفارسي لأحد أتباع بريطانيا باسم «البارون جوليوس رويتر»... وبموجب هذه الاتفاقية تسلّم رجل أجنبي حقّ استخراج جميع معادن البلاد (عدا الذهب والفضة والأحجار الكريمة)، والاستفادة من جميع الغابات والقنوات، وتأسيس بنك وبريد وتلغراف ومعامل، وكل الأمور الإقتصادية في الواقع لمدة سبعين سنة. وكيفية الحصول على هذا الإمتياز وما اقترن به من مسائل سياسية حديث ذو شجون لا علاقة له بموضوعنا. ميرزا حسين خان وصديقه ورفيقه القديم ميرزا ملكم خان كانا من المدافعين بشدّة عن هذا التفكير، وخاصة ملكم خان الذي هو الآن في منصب مستشار الصدر الأعظم، كانت له يد طولى في تنظيم امتياز رويتر..»[2].

«رجال الدين المتعصّبون بزعامة حاج ملا علي كني وصفوا ميرزا حسين خان بأنه رجل لا يؤمن بالدين، ووصفوا أعماله

(١) ـ كسروي تبريزي، مصدر سابق / ١٩.

(٢) ـ آدميت، مصدر سابق / ٨٦ ـ ٨٧.

التقدمية بأنها من صادرات الغرب ومخالفة للشرع»[1].

وكانت الحوادث على النحو التالي:

سنة ١٢٩٠هـ عندما سافر ناصر الدين شاه إلى الغرب لأول مرة، كُلّف ملكم بمهمة الذهاب إلى أوربا، وإعداد مقدمات سفر الشاه اليها. وخلال هذه السفرة حصل سبهسالار بمساعدة ملكم وآخرين على مائتي ألف ليرة مقابل منح هذا الامتياز الخياني لحكومة بريطانيا. مع أن أكثر هذا المبلغ قد نزل في جيب الصدر الأعظم والشاه، فإن ملكم نفسه قد ناله سهم منه أيضاً. امتياز «رويتر» يعني بيع كامل الأرض الإيرانية لبريطانيا مقابل مائتي ألف ليرة. هذه الاتفاقية التي فُوّضت إلى البارون جوليوس رويتر، ومدتها سبعون سنة، قد منحت حكومة بريطانيا مايلي:

١- استحداث الشركات المختلفة.

٢- احتكار امتياز سكة الحديد من بحر الخزر إلى الخليج الفارسي.

٣- استحداث قطار.

٤- الأرض، ومافيها من حصى وصخور وسائر المواد الإنشائية بالمجان.

٥- إعفاء المأمورين البريطانيين من دفع الجمارك والضرائب.

---

(١) ـ نفس المصدر / ٩٠ ـ ٩١.

٦- احتكار حق استثمار مناجم الفحم الحجري والحديد والنحاس والرصاص والبترول وسائر المناجم الأرضية.

٧- الاستفادة المجانية من الأملاك الخالصة، وامتياز استثمار غابات إيران.

٨- احتكار حق الاستفادة من مياه الأنهار واستحداث السدود والتعليات الترابية والأحواض.

٩- امتياز تأسيس بنك.

١٠- امتياز قطاع الغاز وتبليط الشوارع والطرقات والتلغراف والبريد والطاحونات والمعامل المختلفة و... [١].

أهمية هذه الاتفاقية، أو بعبارة أخرى أهمية هذه الصفقة التي بيع فيها الوطن ومقدراته مقابل مائتي ألف ليرة كانت بدرجة حَدَت بالسير هنري رالنسون أن يقول: «هذا الامتياز ربط مقدرات إيران بالبريطانيين. وبعده سوف تتجه إيران بيد البريطانيين إلى جادّة التقدّم، وحين نشرت بنود هذا الامتياز في العالم شوهد أنه يحتوي على مزايا لاتعدّ ولاتحصى، وكل مصادر الثروة الصناعية والزراعية في جميع أرجاء إيران قد وقعت بيد البريطانيين. لم يكن أحد يقدر أن يتوقع مثل هذه الحادثة .. حادثة وقوع مثل هذا الامتياز الهام بيد أحد أتباع حكومة بريطانيا.

---

(١) ـ فشاهي، مصدر سابق / ٤٤١ ـ ٤٤٢.

إضافة إلى جميع خطوط السكك الحديدية في إيران والقطارات التي صارت لسبعين سنة في احتكار البارون رويتر، فإن جميع مناجم إيران سوى مناجم الذهب والفضة والأحجار الكريمة قد منحت بموجب هذا الامتياز، أضف إلى ذلك الجمارك والري واستحداث القنوات...»[1].

ويذكر أمين الدولة أن «حاج شيخ محسن خان» الذي كان يعمل في البلاط البريطاني باعتباره خبيراً إيرانياً هو الذي بدأ الاتصالات الأولى لعقد معاهدة رويتر، ونجح في هذه الاتصالات. لكن محسن خان هذا فوجئ بتعيينه وزيراً مشاوراً في استانبول بعد أن استقال الوزير المشاور السابق «حسين علي خان گروسي»، فدخل صديقه ملكم على خط مواصلة عقد الاتفاقية، وحدث بين الصديقين الحميمين (ملكم ومحسن خان) نزاع.

ويتحدث اعتماد السلطنة (من وزراء ناصر الدين شاه، ومن المعادين لملكم وسياسة حكومة بريطانيا) عن ملكم ودوره في معاهدة رويتر، نقلاً عن ميرزاحسين خان سبهسالار في إحدى المرافعات القضائية بقوله: «ملكم المخادع الدجّال المتظاهر طلبتُه إلى إيران وجعلته مدة مستشاري الخاص، ثم بعثته وزيراً مختاراً إلى بريطانيا. لقد كنت أنوي لأغراض شخصية أن أحطّم الوضع

---

(١) ـ نفس المصدر / ٤٤٣.

القائم في خزانة الدولة، وأقيم بنكاً وسكة حديد. وكان ملكم الحيّال الطماع على علم بهدفي، فاتفق معي في هذه المقاصد بل المفاسد، وتعاون مع مبعوث إيراني إلى لندن، وحثّ الإثنان «رويتر» الصرافَ المتمول البريطاني على هذا الأمر، وهذا البريطاني أعطاني أنا وملكم مبلغاً كبيراً، كما أعطى رشوة لعدد آخر من رجال الدولة في طهران وحصل على ماحصل من امتيازات في سكك الحديد وافتتاح بنك واستخراج المناجم وكل شيء»[1].

دور ملكم في امتياز «لاتاري»

ثَمَّ عقد آخر تم بوساطة من ملكم خان، هو منح امتياز تأسيس لاتاري[2] من قبل ناصر الدين شاه لشخص اسمه بوزيك دوكاردوال Buzic de Cardoal . وأُبرم هذا العقد أثناء الزيارة الثالثة للشاه إلى أوربا حين كان في اسكتلندا. ورشا ملكمُ الشاه جراء هذه الصفقة مبلغ ألف ليرة، وأوضح له أن هذه الصفقة ليست سوى منح امتياز نوع من الصرافة في إيران، وحين عاد الشاه إلى

---

(١) ـ نفس المصدر / ٤٤٣.

(٢) ـ لاتاري **Laterie** كلمة فرنسية تعني نوعاً من (اليانصيب) عن طريق القرعة أو بأشكال وأدوات أخرى.

إيران واجه معارضة العلماء وواجه فتوى حرمة هذا العمل باعتباره نوعاً من القمار.

اضطر ناصر الدين شاه إلى إلغاء هذا الامتياز بموجب برقية أرسلها إلى ملكم (يُروى أن الشاه أُكد للملكم أنه لايحق له إبرام الإتفاق نهائياً إلا بعد أن تأتيه برقية أخرى من البلاط تؤيّد الاتفاقية). وكتم ملكم أمر البرقية ستة أيام استطاع خلالها أن يبرم عقد هذا الامتياز بمبلغ أربعين ألف ليرة، وقيل خمسين ألف ليرة مع شركة بريطانية. ثم أرسل إلى وزارة الخارجية الإيرانية جواباً على البرقية يقول : إنه تم تبادل وثائق الاتفاق، ولايمكن إلغاوه.

هذا الجواب أثار حفيظة الشاه ورئيس الوزراء، فبعثا إلى لندن أمراً يقضي بالغاء الامتياز وخلع ملكم من كل ألقابه.

وبذلك فقد ملكم فجأة مكانته في السفارة بعد ثمانية عشر عاماً من العمل فيها؛ سعى خلالها حثيثاً إلى إعادة مافقده ولكن دون جدوى. وقُدِّم ملكم إلى المحاكم البريطانية بتهمة الدجل، ولكن علاقاته الواسعة بالدبلوماسيين البريطانيين أدت إلى صدور حكم ببراءته. غير أن الحكم حمل أيضاً الإدانة للملكم باعتباره شخصاً «سيئاً». ومنذ ذلك الوقت فقد شخصيته في المحافل البريطانية.

بعد أن يئس ملكم من استعادة مكانته بادر إلى إصدار

صحيفة «قانون» لتكـون لسـان حـال التحرريـين ! وبـدأ يوجّـه انتقاداته إلى الشاه والصدر الأعظم فـي إيران.

هذا الشخص الذي يتظاهر اليوم بالتحررية والتقدمية سـبق أن كتب للشاه رسائل مدح وتملّق لم يبلغها كبار المادحين والمتملّقـين . وينقل لنا صاحب كتاب «تاريخ العلاقـات السياسـية الإيرانيـة - البريطانية خلال القرن التاسع عشر الميـلادي» نموذجـاً مـن هـذه الرسائل المليئة بالملق العجيب، ثم يذكر تحـوّل موقـف ملكـم مـن الشاه قائلاً: «لو لم يتعرّض الشاه والصدر الأعظـم لملكـم، وتركـاه يرتع بما حصل عليه من أربعين ألف ليرة، وأبقاه الشاه فـي منصبـه سفيراً لإيران فـي لندن، لمـا أقـدم أصـلاً علـى إصـدار صحيفـة «قانون» ولاستمرّ على ماكان عليه مـن إرسـال مدبّجـات الملـق والمدح والثناء للشاه ، ولما أصبح من أبطال الحرية والمشروطة فـي إيران. والبرفسور براون مع علمه بأن المحكمة البريطانيـة وصفـت ملكم بأنه شخص سيء يتحدث عنه بأنه دبلوماسي شهير»[1] .

والغريب فـي أمر الكتاب «التقدميـين ! » أنهـم يثنـون أكـبر الثناء على ميرزاحسين خان سبهسالار وعلى ملكـم خـان نـاظم الدولة ويعتبرونهما من طلائع الحركة الإصلاحية والتقدميـة فـي

---

(١) ـ محمود محمود، تاريخ روابط سياسي إيران وانكليز در قرن نوزدهـم ميلادي (فارسي) ١٢٢٣/٥ ـ ١٢٢٥، طهران، إقبال.

إيران. بينما يكيلون الشتم لمن وقف بوجههم من علماء الدين مثل الحاج ملا علي كنـي. ولنقف قليلاً عند بعض هذه المواقف.

ملا علي كنـي وامتياز رويتر

الحاج ملا علي كنـي ولد سنة ١٢٢٠ هجريـة قمريـة، فـي قرية «كَنْ» قرب طهران، من أب مزارع لايحمل رغبة فـي دراسة أولاده. لكنّ «علـي» أنهى مقدمات الدراسة الإسلامية بجدّ، واتجه فـي العشرين من عمره إلى النجف ليواصل دراسـته فيـها، وجـدّ فـي الدراسة هناك رغم شظف العيش، ودرس على كبار العلمـاء، منهم الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر ، وحين عـاد إلى إيـران كان من وجوه المجتهدين فيها. وبلغ فـي عصر نـاصر الديـن شـاه مكانة علمية وشعبية هامة، فكان يصدر الأوامر إلى الشاه، والشـاه يخشى قدرته. وله موقفان سياسيان هامان: الأول – تجـاه التنظيـم الماسونـي فـي إيران بقيادة ميرزا ملكـم خـان، فعارضـه إلى أن أصدر الشاه أمراً بانحلاله. والثانـي – تجاه امتياز رويـتر. ممـا أدّى أيضاً إلى إلغاء الامتياز.

نقتطف عبارات من رسالة وجهها هذا الرجل إلى ناصر الديـن شاه لنفهم مـن سـطورها دور علمـاء الديـن وأصحـاب مدرسـة الأصالة فـي الدفاع عن استقلال الوطن وحفـظ كرامتـه، وصيانـة مقدراته التـي تهاون بها وتلاعب بها، وساوم عليها «المتغربون».

«... بناء على ذلك؛ نحن الداعون والمؤمنون نؤكد أن شخص ميرزا ملكم خان عدو للدين والدولة، وليست للحكومة والسلطنة صلاحية إطلاق لقب ناظم الملك عليه، ومن يفعل ذلك فقد خان الدين والدولة، وأجاز المجرم أن يتدخل في جسيم أعمال الدولة».

«هذا الرجل (ملكم) يعبث منذ مدّة في دار الخلافة وأسس محفلاً ماسونياً، ظاناً أنه قادر على أن يمسك بمقاليد الأمور، ويعمل على اضمحلال الدين والأمة. ولكن عدو الدين والدولة هذا والحمد للّه قد خاب ويئس بفضل موقف الشاه، لكنه لايزال يحلم بتلك الطموحات، فعمد إلى إيقاع البلد في معاهدات وشروط تحت عنوان مد سكة الحديد».

«ولقد بلغنا أنه يستهدف بهذه المعاهدات إجبار الناس على تسليم أموالهم وأملاكهم مثل الغابات والمناجم والقنوات، بل سيتم بموجب هذه المعاهدة تسليم الأموال العامة. هذه المعاهدة ستنزل بالبلاد ضرراً اقتصادياً، لو أرادت الدولة بعد ذلك دفعه لما استطاعت حتى ولو أنفقت كل مافي الخزانة ومافي أيدي الناس».

«واسمحوا لي أن أقول لكم: بأية صلاحية تستطيع الحكومة أن تجبر رعاياها على بيع الأملاك والأشجار والأراضي والمياه؟ !

ومن الذي سلّطها على ذلك كلّه؟ ! لا الشرع الإسلامي يجيز لها ذلك ولا شرائع سائر الأديان...»

«... لو أن الأوضاع استدعت أن ننهض للدفاع عن وطننا أمام المعتدين والطغاة، فبأي مال؟ وبأي رجال؟ وقد نضبت الأموال ويئسَ الرجال !! ولو فتح الطريق أمام غزو الإنجليز تحت اسم مدّ سكة الحديد فأي عالم دين تبقى له حرمة في هذه البلاد؟ ! لو بقي لأحد منهم قدرة على الكلام فهل يستطيع أن يقول شيئاً سوى: وادايناه ! و وا أمتاه ! بأية جرأة تفسحون المجال للأجانب أن يأتوا بخيلهم ورجلهم وأموالهم ليسيحوا في سهول بلاد إيران العظيمة ويصلوا إلى عاصمة السلطنة؟ ! ما الذي يضمن عدم فرضهم سيطرة عسكرية علينا بالمدفع والبندقية؟ ! ».

«أقسم عليك أيها الشاه أن تصون حرمة الدين والوطن، وتقطع يد كل خائن، خاصة هذا الخائن الذي يريد أن يعقد معاهدة مدّ سكة الحديد بصورة تتعارض مع مصلحة الدين والدولة وبدون استشارة العقلاء والأخيار..» [1].

الشيخ حسن الكربلائي وامتياز التنباك

الشيخ حسن الكربلائي عالم دين، فهم من منطلقه الديني ما ستجره خيانات «التقدميين» من مصائب على البلاد، جرّاء هزيمتهم

(١) ـ تيموري، مصدر سابق.

أمام الأوربيين، وفسحهم المجال أمام الأجانب ليحصلوا على امتيازات اقتصادية في الوطن الإسلامي.

ألّف الشيخ كتاباً تحت عنوان «تاريخ الدخانية» يذكره الشيخ آقا بزرگ الطهراني في الجزء الثالث من «الذريعة» يقول: تاريخ الدخانية وشرح منشور الامتياز والانحصار في أنواع الدخانيات في سنة ١٣٠٩ من سلطان إيران وما ترتب عليه؛ كتاب فارسي، سلس، لطيف. للشيخ حسن التستري الأصفهاني الحائري المعروف بالشيخ حسن الكربلائي، من أفاضل تلاميذ آية اللّه المجدد الشيرازي، توفي بالكاظمية في نيف وعشرين وثلاثمائة وألف... ألفه بسامراء وذكر فيه القضية الدخانية من بدء صدور امتيازها عن السلطان ناصر الدين شاه إلى ارتفاعها..»

لانريد هنا أن نتحدث عن تفاصيل امتياز التنباك وما أعقبه من نهضة دينية أدّت إلى إلغائه، فسنفصل الحديث عن ذلك في موقعه، بل نريد أن ننقل صورة من الوعي الديني تجاه جريمة أخرى من جرائم المتغربين في هذا البلد المسلم.

يقول الشيخ حسن الكربلائي في هذا الكتاب(١):

«بعد أن انفتحت أبواب إيران أمام الغربيين الأذكياء راحوا

---

(١) ـ الشيخ حسن كربلائي، تاريخ الدخانية (معاهدة رجي)١٤ ـ ١٦، أراك ١٣٣٣هـ.

يبحثون عن امتيازات اقتصادية لهم فـي أرجـاء البـلاد، وحصلـوا على العديد من الامتيازات الصغيرة التـــي تفسـح لهـم المجـال أن يتدخلوا فـي شؤون إيران. ولكن هذه الامتيازات الصغيرة لم تحقّق هدفهم بشكل كامل، فطفقوا يفكرون فـي امتيازات واسـعة بعيـدة المدى لينالوا مآربهم على نطاق واسع..» .

ثم يصف المرحوم الكربلائي ثالث زيارة لناصر الدين شاه إلى أوربا، ويطيل الوصف فـي كرم ضيافة البريطانيين للشاه، وطلبـهم منه توثيق العلاقات بين الجانبين، ويقول:

«... واضح أن الطامع الذكي الخبير يسـتغل هـذه الفرصـة، إذ أوعز إلى الميجرتالبوت - وهو بريطانـي له علاقات وطيدة بإيران وطالما تظاهر بحبه لإيران وحكومتها - أن يقدّم مشروع الحصـول على امتياز التنباك في إيران. وتوسّـل تـالبوت بـأحد الـرؤوس المتنفذة فـي الدولة ـ ويقصـد بـه مـيرزا علـي أصغرخـان أمـين السلطان - وسيأتي ذكره وأوحوا إلى السـلطان أن هـذا الامتيـاز سيدرّ على البلاد أرباحاً طائلـة، وأنـه سـيدفع البـلاد إلى جـادّة الترقّي»[1] .

ويقول فـي موضع آخر: «إن هذا الرأس المتنفـذ كـان علـى علم بما يجرّه هذا الامتياز من مفاسد، ولكـن لنفعيتـه وسماجتـه أو

---

(١) ـ نفس المصدر / ١٧.

لملاحظات أخرى رضخ لهذا الامتياز، ومهما يكن الدافع فإنه وقّع على الاتفاق من دون استشارة؛ متجاهلاً ما سيجره من عواقب وخيمة وسيئة، وما سيؤدي إليه من إبادة لمُلك إيران ومملكتها»[1].

وكتب إبراهيم دهگان تعليقاً على كتاب الشيخ حسن كربلائي، وفي تعليقه على مانقلناه من كلام الشيخ حسن يقول:

«المقصود بالرأس المتنفذ أمين السلطان . هذا الرجل المتملّق الذي لم يكن يجرؤ على أدنى حركة دون إذن أسياده. فهو الذي هيأ وسائل سفر الشاه إلى بريطانيا بإيعاز من السيرهانري وولف سفير بريطانيا اليهودي الأصل في طهران».

... في تلك السفرة (سفرة الشاه الثالثة إلى بريطانيا) قدمت إلى الشاه عدة اقتراحات، منها اقتراح امتياز التبغ. وأوكلت مهمة أخذ هذا الامتياز لمضيّف الشاه الميجر جيرالد تالبوت. واتصل هذا الأخير باعتماد السلطنة وأمين السلطان، وبيّن لهما مزايا هذا الاتفاق، ومما قاله لهما: إن هذه الاتفاقية ستؤمّن نفقات سفرة الشاه هذه والسفرات القادمة أيضاً. وأمين السلطان قال للشاه في أحد لقاءاته: إن هذا الامتياز مثل كنز موهوب، ولا عاقل يغضّ النظر عن صيد جاء بين يديه(!) مشروع هذا الامتياز وضع في مدينة برايتن بعد أن حصل تالبوت على معلومات كاملة عن وضع إيران

---

(١) ـ نفس المصدر / ١٦ ـ ١٧.

ومسائلها الاجتماعية عن طريق اعتماد السلطنة.

والميجر تالبوت كان على علم بنقاط ضعف الشاه وحاشيته. واستناداً إلى مذكرات ناصر الدين شاه نفسه فإن الميجر تالبوت دعا الشاه إلى الجلوس عند حوض بلّوري ودعا فتاة في الخامسة عشرة من عمرها وفي حالة.... إلى السباحة في الحوض أمام الشاه. وبذلك ملك على الشاه إرادته»[1].

بمثل هذه الخطط اشتروا الأوطان وعاثوا بالمقدّرات.. ومع هذا فالسقوط في أحضان الغرب في أدبيات المثقفين «تقدمية»، ومعارضة علماء الدين لهذا السقوط «رجعية وتحجّر».

وكلما تقدمنا في تاريخ هذه الحقبة نجد أن خططاً معقّدة ومدروسة تنفّذ في هذا البلد عن طريق شبكات واسعة عظيمة تُدار في لندن، تتجلى تارة بالماسونية وتارة بالبابية وتارة أخرى بخطط التحلل الخلقي والعقائدي.

فمنذ أن طرد أول سفير بريطاني من بلاط الشاه طهماسب بذلة ومهانة، وعفّر مسلم شهمٌ مواضع أقدامه بالتراب أيقن الغربيون أن هذه الأمة تستمد من عقيدتها ودينها وتاريخها ما يمكّنها من مواجهة ألوان التحديات. فهذه الطاقات المعنوية كانت

---

(١) ـ نفس المصدر / ١٧.

وراء انتصارات الإسلام منذ بدر وحنين وفتح بيت المقدس وعبور مضيق جبل الطارق وفتح القسطنطينية بيد محمد الفاتح وحتى هذه العقبات التي يواجهونها في الدولتين الصفوية والعثمانية أمام توغلهم ونفوذهم. لذلك خطّطت الدول الغربية وعلى رأسها بريطانيا لإفراغ هذه الأمة من محتواها العقائدي. والخطط التي نفذوها في إيران غريبة للغاية... والأغرب من ذلك أنها لم تستطع أن تمزّق إيران وتفتتها، والسبب الوحيد يعود إلى مواقف علماء الدين وقيادتهم لهذه الأمة وشحنهم وجدان الجماهير بروح الحسين(ع) وكربلاء الحسين وبتاريخ المواقف الأبية لأهل بيت رسول الله(ص).

ولو كان الأمر بيد «التقدميين» لقدّموا وطنهم ومقدّرات شعبهم خلال ساعات قرباناً على مذبح أسيادهم الغربيين، باسم مواكبة حركة التقدم والتحرر في العالم !!

جدير بالذكر أن أحد «التقدميين» الذين يحملون على علماء الدين في موقفهم من امتياز التنباك هو علي خان أمين الدولة، فقد كتب في «مذكراته» عن موقف علماء الدين بأنها عمليات استفزاز للسوقة والأراذل، وحثهم على الحصول على خزانة الدولة وأموالها !!

واللطيف في هذا الأمر أن أمين الدولة هذا من «المتجددين»

ومن حماة ملكم خان في تأسيس المجمع الماسوني في إيران، ومذكراته هذه نشرها حافظ فرمانفرمائيان[1]، وعائلة فرمانفرمائيان من العوائل الماسونية التي تغلغلت كالسرطان في أجهزة الحكم آنذاك، وقد حصل على هذه المذكرات من حفيد أمين الدولة وهو «علي أميني»، وهذا الأخير هو الذي تولى رئاسة الوزراء في زمن الشاه المقبور، ووقّع على اتفاقية «الكنسرسيوم» المذلة، ودعم بشدّة مصالح أمريكا في إيران. إن هذه العائلة ومثيلاتها تعتبر فروعاً متشابكة لشجرة خبيثة اجتهدت للقضاء على الروح الدينية وعلى مكانة علماء الدين في هذا البلد المسلم تمهيداً لعملية الغزو الغربي الكاملة.

امتياز التنباك

نفصل الحديث الآن عن امتياز التنباك وما جرّه على البلاد، وموقف الأمة المسلمة بقيادة علمائها من هذا التدخل الأجنبي.

الاتفاقية باختصار نصت على مايلي:

«لقد منحنا امتياز عمليات بيع التبغ وشرائه وتصنيعه في كل الممالك المحروسة (الإيرانية) لمدة خمسين عاماً ابتداء من توقيع

---

(١) ـ انظر حافظ فرمانفرمائيان، خاطرات سياسي أمين الدولة (فارسي)، طهران، كتابهاي ايران، ١٣٤١.

لائحة الامتياز هذه، للميجر تالبوت وشركائه بالشروط التالية:

١- يدفع أصحاب الامتياز سنويا ١٥ ألف ليرة بريطانية إلى الخزانة العامرة سواء ربحوا في عملهم هذا أم خسروا.

٢- تصدر الدولة للحكام المحليين تعليمات تقضي بإلزام الفلاحين أن يحصلواعلى إذن من صاحب الامتيازبشأن زراعة التنباك.

٣- يسلّم صاحب الامتياز ربع الأرباح الخالصة من هذا العمل للخزانة العامرة.

٤- تعفى كل المصانع والمعدات اللازمة لهذا العمل من الضرائب والمكوس.

٥- نقل التنباك داخل الممالك المحروسة (الإيرانية) دون إذن صاحب الامتياز ممنوع، إلاّ ماحمله المسافرون لاستعمالهم اليومي.

٦- يشتري أصحاب الامتياز كل التبغ المزروع في الممالك المحروسة بثمن نقدي يرضي الزارع، ولدى بروز اختلاف بين الجانبين يقضي بينهم حَكمٌ يوافق عليه الطرفان.

٧- توافق الدولة على عدم فرض رسوم ومكوس اضافية بشأن التبغ والتنباك، وعدم المطالبة بزيادة العائدات الحالية، خلال الأعوام الخمسين من هذا الاتفاق.

٨- كل من يتصرف خلافاً لهذا الامتياز أو يعمد إلى المتاجرة بالتبغ والتنباك خفية يتعرض لأشدّ عقاب من الحكومة.

٩- يحق لأصحاب الامتياز أن ينقلوا حقهم أو بعض حقهم لفرد آخر أو أفراد آخرين على أن يضعوا الحكومة في صورة هذا الانتقال.

١٠- عندما يحصد المالك التبغ أو التنباك عليه أن يذكر مقدار محصوله لأقرب وكيل لأصحاب الأمتياز، كي يُشترى منه المحصول وفق المادة السادسة.

١١- لايحق لأصحاب الامتياز أن يشتروا أراضي إلا بمقدار مايلزمهم لتنفيذ هذا الأتفاق في جمع المحصول وخزنه.

١٢- يحق للزارعين أن يحتفظوا من محصولهم بمقدار استهلاكهم.

١٣- إذا لم تبدأ الشركة بعملها خلال مدة سنة من توقيع هذا الاتفاق فإن هذا الاتفاق يلغى، إلاّ إذا منع التنفيذ مانع كالحرب وأمثالها.

١٤- في حالة بروز اختلاف بين دولة إيران وأصحاب الامتياز يُرجع إلى حَكم يرتضيه الطرفان.

١٥- أعدت هذه الاتفاقية بنسختين وتم التوقيع عليها بتاريخ ٢٠ مارس ١٨٩٠ الموافق ٢٨ رجب ١٣٠٨....

وخلال ١٧ شهراً بعد عودة الشاه قدم جمع من الإفرنج باسم وفد الشركة إلى إيران لتحقيق أهدافهم..»[(١)] .

---

(١) ـ ناظم الإسلام كرماني، تاريخ بيداري ايرانيان (فارسي) = تاريخ يقظة الإيرانيين / ٣٨، طهران ١٣٢٤ هـ . ش.

حين مرّ الوفد من استانبول في طريقه إلى إيران التقاه مسؤول صحيفة «اختر» الناطقة بلسان المثقفين الإيرانيين المعارضين المقيمين في تركيا، ووجه سؤالاً إلى الوفد عن فوائد اتفاق احتكار التبغ والتنباك في إيران، فجاء الجواب: إن المزارع الإيراني كان يبيع محاصيله إلى التجار بالدَّين أو كان يقايض محصوله بالقماش، ولكنه الآن يحصل على ثمن محصوله نقداً. ويعلّق مسؤول الصحيفة على هذا الجواب بأن المزارع الإيراني ماكان يبيع محصوله بالدين، بل كان يحصل على الثمن نقداً، بل أحياناً كان يحصل على الثمن سلفاً قبل حصاد المحصول، أضف إلى ذلك كان المزارع الإيراني أمام خيارات متعددة لدى البيع، أما الآن فهو أمام خيار واحد لاغير، وهو أن يبيعه للشركة، من هنا فلا تعود هذه الاتفاقية على المزارع بالربح، بل بالخسارة..»[1] .

هذا هو كل مافي ذهن هؤلاء المثقفين من اعتراض ومن إحساس بالغبن والخطر في هذه الصفقة مع الغربيين. حساب الربح والخسارة في ذهنهم لايعدو أن يكون طريقة البيع واحتكار المشتري.

(١) ـ فريدون آدميت، شورش بر امتيازنامه رجى (فارسي) = التمرّد على امتياز رجي/ ١٠، طهران، ١٣٦٠ هـ . ش.

الموقف الإسلامي من معاهدات الخيانة

صرخة الشيخ حسن الكربلائي

النداء الذي يرفعه الشيخ حسن الكربلائي ضد منح هذا الامتياز والقلق الذي يساوره، وإحساسه بالخطر ينطلق من فهم ديني وثقافي عميق . إنه يرى في هذه الاتفاقية مصادرة لكرامة هذه الأمة وشخصيتها الدينية وهويتها الثقافية. وهذه لغة كل المعارضين الدينيين لهذا الانفتاح غير المسؤول على الغرب.

يقول في كتابه «تاريخ الدخانية» أو «قرارداد رژي»:

«.. جاء مع هذا الوفد وبعده تحت عناوين مختلفة مائتا ألف افرنجي نساءً ورجالاً. وانتشروا خلال ١٧ شهراً في أرجاء إيران. وكانوا قبل ذلك موجودين في دار الخلافة (طهران) وهؤلاء زادوا في الطين بلّة فأصبحت إيران سوقاً إفرنجياً بكل ما لهذه الكلمة من معنى». انظر كيف يتحسس هذا الشيخ المتدين من الغزو الثقافي الغربي:

«ليس بمقدور القلم أن يصف الأوضاع الغريبة في الشارع

الإيرانـي.. إذ ليس كل مايُرى يقال ، وليس بالإمكان نقل الصورة كاملة إلى الأجيال القادمة ليعلموا ماجرى فـي بداية قرنهـم هـذا. على أي حال كل الملل والنحل قد قويت فـي إيران مائة مـرة إلاّ الملّة الإسلامية فإنها قـد ضعفـت ضعفـاً لاحـدّ لـه. وفـي هـذه الأوضاع أصبح سوق طهران التـي هـي عاصمـة الإسـلام (أنظـر كيف يركز على الهوية الإسلامية لبلده لا علـى الهويـة القوميـة أو الإقليمية) مملوءً بألوان المذاهب بما فـي ذلك اليهود. فقد أصبح لهم مكانة وصولة وجولة فـي السـوق الإيرانـي وانتعشـت حالتـهم الاقتصادية. (أنظر إلى الاقتران بين التدخل البريطانـي وانتعـاش حالة اليهود فـي إيران).

أخيرا أصبح للغربيين محلاّت تجارية ودكاكين فـي الأسـواق التقليدية وترى فـي هذه الدكـاكين شـابات إفرنجيـات متزينـات بألوان الزينة جلسن ليبعن أفخر ألوان البضـائع البريطانيـة التـي تشدّ إليها الأنظار وتخلب الألباب. والمسلمون المبهورون يتـهافتون على هذه المحلات باسم التسوّق ليفقدوا دينهم وعقلـهم فيـها. وإلى جانب ذلك فإن مجاميع مـن «الفنانـات» ومجـاميع مـن «البغايـا» الغربيات قدمن إلى إيران وفتحن فـي أرجـاء الممـالك المحروسـة (إيران) دوراً للهو ودوراً للبغاء. وفـي كـل يـوم يقـع جمـع مـن المسلمين فـي هذه الشراك، فيفقدون مالهم؛ وهذا أيسر مايفقدونـه،

لأنهم يفقدون دينهم أيضاً»[1].

هذا الشيخ المؤمن يقضّ مضجعه أن يرى كرامة النـــاس تهـدر على يد من لايجوز أن يجد سبيلاً للتسلط على المســـلمين، يصـوّر حالة الذل المؤلمة آنئذٍ فيقول:

«فــي محطة قطار عاصمة الإسلام الكبرى (طهران) وأمام جمع من الناس رفع إفرنجي عامل فــي القطار يده وهوى بها على وجه موظف إيرانــي، وكانت الصفعة قوية إلى درجة أنها قذفــت بقبعـة الإيرانــي وارتمت فــي الأوحال. ولم يكتف هذا الافرنجــي بذلــك، بل أطلق لسانه بالسب والشـــتم والقــول بتــهكّم وغــرور: اذهــب واشتك عند من شئت. وهذا المسلم المسكين يعرف قدرة خصمـــه، فلم ينبس ببنت شفة.

أضف إلى هذه الصور المؤلمة فإن الإفرنج المنتشرين فــي إيران اتخذوا من الرجال والنساء خـــولاً وخدمــاً فـــي بيوتهــم، وكــانوا يحرصون على اقتناء النساء بأجور مغرية للخدمة والحضانة. حـــتى أنك ترى فــي كل حدب وصوب من طهران امرأة مسلمة تحتضــن طفلاً أو طفلين من الأسر الغربية..»[2].

---

(١) ـ نفس المصدر / ٢٤.

(٢) ـ نفس المصدر / ٢٦.

النهضة ضد منح الامتياز

فـي رجب سنة ١٣٠٨هـ . ق وصل طهران وفد من الشـركة ليوقع مع الشاه ومجلس الـوزراء علـى الاتفاقيـة. وبـدأ القـادمون بتوزيع الرشاوي والهدايـا، وتم الاعـلان عـن التوقيـع علـى هـذا الاتفاق. يتحدث الشيخ حسن الكربلائي عن صدمة الشـعب بهـذا الإعلان يقول: «لقد كانت الاشاعات تطرق الأسماع بشـأن اتفـاق كهذا، وكان عامة الشعب الإيرانـي يرون أن مثل هذا العمـل بعيـد عن الغيرة وحبّ الوطن، ويستبعدون حدوث مثل هذا الاجحـاف بحقّ بلاد الإسلام. وكانوا غالباً ما يرفضون قبول هذه الإشـاعات . حتى أعلن ذلك رسمياً عن طريـق إبـلاغ الحكـام المحليـين، فعلـم الشعب بتفاصيل القضية، وأصبحت المسألة جادّة بعدما كانت أقرب إلى الإشاعة والمزاح»[١] .

كيف بدأت الحركة ضد الاتفاق وفـي أي زمان وعلى يد مَـن بدأت، وكيف تواصلت؟ ثمة روايات مختلفة فـي هذا المجال، والرواة ينطلقون من متبنياتهم الفكرية فـي سرد الأحـداث، ونحـن نذكـر عدة نماذج من هذه الروايات، ونترك الحكم إلى القارئ.

ننقل الرواية الأولى عن أحمد كسروي:

---

(١) ـ نفس المصدر / ٢٩.

«... أبدى الناس سخطهم منذ الخطوات الأولى، التجار كتبوا رسالة شكوى إلى الشاه وأوصلوها إليه عن طريق أمين السلطان. ولكن الشاه وأمين السلطان كانا من مؤيدي الاتفاق، ولذلك لم تجد شكوى التجار أذناً صاغية. وبعد أن انتشر موظفو الشركة في البلاد ازداد السخط وانتشر وبدأ يأخذ شكل حركة شعبية عامة. وكان التحرك الرافض في تبريز أشدّ، فقد مزّق الناس هناك إعلانات الشركة وألصقوا مكانها بيانات ساخطة ثورية. طلب ولي العهد من والي تبريز (امير نظام گروسي) أن يتخذ موقفاً متشدداً من الناس الناقمين. أبى الوالي واستقال من منصبه.

حاولت الشركة أن تستميل أبناء المنطقة فأعلنت أن يكون عمالها في آذربيجان من أهالي المنطقة أنفسهم. ولكن الناس رفضوا وواصلوا صمودهم. بعد تبريز نهضت أصفهان وسرت النهضة إلى طهران. كان العلماء (المقصود علماء الدين) في طليعة النهضة في كل مكان. «الحاج ميرزا جواد» في تبريز، و«آقا نجفي» في أصفهان، و«ميرزا محمد حسن آشتياني» وآخرون في طهران. ومن سامراء بعث المجتهد الأكبر ميرزا محمد حسن الشيرازي برقية إلى الشاه ذكّره فيها بمضار الامتياز، وطالبه بإلغائه.

ازدادت البلوى وحار الشاه في أمره. عزم في بداية الأمر أن يسحب من الشركة إجازة البيع في الداخل، ويقتصر الامتياز

على البيع في الخارج. لكن «الناس» و«العلماء» لم يرحبوا بهذا ولم يتراجعوا عن نهضتهم. فكّر «العلماء» بطريقة أخرى، هي أن يتركوا الشركة وشأنها ويتجهوا إلى الناس ليطلبوا منهم الامتناع عن تدخين الشطب والنارجيلة. فأصدر الميرزا الشيرازي فتواه المعروفة بتحريم الشطب والنارجيلة. وما إن وصلت هذه الفتوى إلى المدن حتى قبلها عامة الناس نساء ورجالاً، كباراً وصغاراً، فقراء وأغنياء. وفجأة أغلقت جميع محلات بيع التبغ والتنباك، وزال الشطب والنارجيلة من الاستعمال.

لقد حدث هذا بصورة أذهلت جميع الأجانب. فاضطرت الشركة إلى أن تعتب على الشاه وتطلب منه أن يسعفها في الموقف.

أراد الشاه في المرحلة الأولى أن يختبر قدرته ، فأرسل إلى الميرزا الآشتياني (عالم طهران) أن دخّن النارجيلةَ علناً وأمام الناس واكسر هذه الفتوى (فتوى الميرزا الشيرازي) أو اخرج من طهران. فآثر الخروج من طهران، وحين استعدّ للخروج ثار الناس ومنعوه من ذلك. وكان جماعة من الناس الساخطين متجمعين حول قصر الشاه وهمّوا بالدخول، فأمر «آقا بالاخان» (أصبح قائد الجيش فيما بعد) بإطلاق الرصاص على المتجمعين فسقط سبعة قتلى، وجُرح عشرون أو أكثر. وحين بدأت النهضة بالتصاعد

وأصبح الأجانب في طهران والمدن الأخرى في خطر، اضطر الشاه إلى مفاوضة الشركة، وتم الاتفاق على إلغاء الامتياز مقابل غرامة قدرها ٥٠٠ ألف ليرة في ١٣٠٩هـ.ق. ودفع مبلغ الغرامة إلى الشركة بقرض من البنك الشاهنشاهي الحديث التأسيس آنذاك. وهذا أول قرض لحكومة إيران.

بعد ستة أشهر من الغليان الشعبي انتهت القضية، ويمكن اعتبار هذه «أول نهضة شعبية إيرانية»...»[1] .

الرواية الأخرى ننقلها عن الشيخ حسن الكربلائي في كتابه: «تاريخ الدخانية» أو «قرارداد رژي» وهو أوثق كتاب في القضية.

«... بعد أن استقر موظفو الشركة في طهران، بدأوا يمارسون أعمالهم باستقلال كامل، بعثوا إلى كل مدينة جماعة من الأفرنجيين بعنوان وكلاء الشركة، وبدأوا بشيراز باعتبارها أهم قطر منتج لمواد التدخين في إيران. اتجه الأفرنجيون المرشحون إلى شيراز، وسبق توجههم تأكيد على حكومة فارس (شيراز جزء منها) بضرورة الاهتمام التام باستقبال واستضافة هذه الجماعة . علم أهل شيراز بأن هؤلاء في الطريق إليهم، فدهشوا وبوغتوا وتقاطروا من كل حدب وصوب على بيوت علمائهم. وعلماء البلد أبدوا استياءهم

---

(١) ـ كسروي تبريزي، مصدر سابق / ٢١.

من ذلك، وكل ذلك جعل استقبال الأفرنجيين في شيراز متعذراً على الحاكم فيها. ومن هنا اضطر الأفرنجيون إلى البقاء بعيدين عن شيراز كي ترفع حكومة شيراز تقريراً عن الأوضاع إلى الدولة. فجاءت الأوامر من الدولة تقضي بنفي «السيد علي أكبر فال أسيري» باعتباره من أبرز العلماء المعارضين...»[1].

يبدو أن «ميرزا رضا خان قوام الملك» تعهّد بأن ينفّذ هذا العمل الدنيء. وكان من عادة «السيد» (علي أكبر فال أسيري) أن يذهب أحياناً وحيداً إلى الصحراء ليتلو زيارة عاشوراء. واتفق أن ذهب السيد ذلك اليوم إلى الصحراء، فالتفّ حوله خيّالة قوام الملك واعتقلوه وأركبوه على بغل غير مُسرَّج، وفعلوا به ما فُعل بأبي ذرّ عند نفيه من الشام إلى المدينة. واتجهوا بالسيد رغم شيخوخته بهذه الصورة إلى مدينة بوشهر دونما توقّف إلاّ قليلاً. وأوصلوه إلى بوشهر في وضع مزر «هو مدعاة فخر ومباهاة وشرف لرهط العلماء الأجلاء» كما يقول الشيخ حسن الكربلائي، وسلموه إلى حكومة تلك المنطقة.

حكومة بوشهر، إما خوفاً من المسلمين أو بسبب ماكان في الحاكم من عواطف إسلامية، أكرمت وفادة «فال أسيري» وفكت أغلاله، فأقام مدة في بوشهر، ثم رحل إلى سامراء فاستقبله فيها

---

(١) ـ كربلائي، مصدر سابق / ٢٩.

مرجع الشيعة الميرزا محمد حسن الشيرازي أحرّ استقبال.

من جانب آخر، حين انتشر نبأ اعتقال السيد فال أسيري ونفيه بين أهالي شيراز صرخوا بأجمعهم «وا إسلاماه ! » واتجهوا إلى مرقد السيد أحمد بن موسى (مزار معروف في شيراز)، وتجمعوا هناك، فتأزمت أوضاع المدينة وأرهبت الحكومة، فأمر «قوام الملك» الذي أثار هذه الفتنة أحد الجلادين بإطلاق النار على الناس المتجمعين، فقتلوا جماعة وجرحوا آخرين، وبذلك مُهّد الطريق أمام ورود البريطانيين، فقدموا إلى شيراز بعد أن توقّفوا مدة في الطريق كما ذكرنا، وطفقت الحكومة تقدم كل إجلال واحترام لهؤلاء.

تصاعد المقاومة وموقف العلماء

يقول الشيخ حسن الكربلائي في كتابة القيّم:

«... بعد ذلك بعثت الشركة صاحبة الامتياز بوكلائها إلى سائر الممالك المحروسة (المحافظات الإيرانية)، ولم تكن أية منها خالية من الاضطرابات بسبب تخوف الناس من ورود الإفرنج. ورغم ذلك فإجراءات الحكومة القمعية أدّت إلى أن يدخلوا في المدن بجفاوة بالغة. نعم، في مملكة (محافظة) آذربيجان كان عامة الناس وخاصة علماء تبريز وعلى رأسهم جناب المستطاب حافظ

الشريعة «الحاج ميرزا جواد آقا المجتهد» يصرّون على عدم قبول هؤلاء الإفرنج صيانة للدين والدولة، وكلما ازدادت الدولة إصراراً ازداد هؤلاء إباءً ورفضاً، مما اضطر الحكومة إلى التنازل عن فرض هذا التكليف على آذربايجان، ولكنها عادت ففرضت بتعسّف أمر هذا الاحتكار. وهكذا فرضت الحكومة على كل البلاد احترامَ رجال هذه الشركة.

وأول مافعله وكلاء الشركة بعد وصولهم المدن المختلفة شراء الأملاك في النقاط العامرة والحساسة ، وشيّدوا فيها البنايات المرتفعة المشرفة على المدينة، وبذلك زادوا من قلق الناس وتخوفهم. وكانت مهمتهم الأولى وضع اليد على كل مواد التدخين في البلاد ليكون بيع هذه المواد وشرائها خاصاً بإدارة الشركة دون غيرها. ولما كان هذا يؤدي إلى أن يتكبد المسلمون خسائر فادحة فقد أدّى إلى تمرّد في صفوف الناس وسبّب للحكومات المحلية مشاكل متفاقمة. ولاخماد هذه الفتنة قررت الحكومة أن يكفّ وكلاء الشركة لعدة أشهر عن شراء مواد التدخين ليصفي التجار حساباتهم السابقة. وكانت هذه الأشهر فرصة للمسلمين يفكرون فيها في مخرج من هذا المأزق. ومن الواضح أن المنقذ في مثل هذه الأزمات الشعبية هم علماء الشعب . ولا غرو أن يتجه عامة الشعب في كل محافظة إلى بيوت العلماء ليرفعوا إليهم

شكواهم. والعلماء الأعلام، بعد اطلاعهم على ماينطوي عليه هذا العمل من مفاسد، وما سيجره من تبعات إفساد هي الهدف الأصلي للافرنج، طفقوا في العثور على مخرج من هذا الخطر. ولكن الحكومة كانت قد أهانت الشعب وأذلته وماعاد لكلمة العلماء وقع وتأثير، فما استطاعوا أن يتوصلوا إلى سبيل للنجاة. لذلك استغاثوا برئيس العلماء وأمل الإسلاميين حضرة آية اللّه الميرزا محمد حسن أرواحنا فداه وهو الذي أيّد اللّه به الدين في هذه المائة.

... لقد تقاطرت على جنابه (الميرزا محمد حسن الشيرازي) رسائل الشكوى من كل أصناف الناس وخاصة العلماء توضح له أبعاد هذه الداهية العظمى وتستغيث به، وبلغ الأمر أن ترك أعماله الجسام وصرف وقته لمتابعة أحداث هذه الفتنة الكبرى. واتضحت لهذا العَلَم الكبير تبعات الفساد التي ستجرّ على الأمة جرّاء هذه الفتنة التي ابتليت بها الدولة والشعب المسلم. ثم إن العلماء حماة ثغور الدين وأهم تكاليفهم المحافظة على هذه الثغور كي لاتتاح الفرصة لمَن تسوّل له نفسه أن يتطاول على الدين أو يخل به. وواجب هذا التكليف الكبير في عصر غيبة المعصوم تقع على عاتق نوّابه وهم العلماء. ومن هذه المقدمات المحكمة، رأي أنّ مسؤولية الدفاع تقع على عاتقه باعتباره أكبر مرجع ديني على

ظهر الأرض، ورأى أنه لابد من دخول الميدان لإخماد هـذه الفتنـة الكبرى (فتنة دخول الأجانب إلى بلاد الإسلام) لأنهـا تفتـح بابـاً للإخلال بالشريعة، بل لانهدامها واضمحلال الأساس الـذي تقـوم عليه هوية الشعب المسلم. ومن هنا بدأ اهتمامه بالموضوع مسـتنداً إلى قواعد رصينة...»[1].

الميرزا الشيرازي رأى أن الأوضـاع لاتحتمـل التأخـير، فبـدأ عمله بخطاب هادئ للشاه والمسـؤولين يدعوهـم إلى الكـف عـن مواصلة المشروع، فتضمنت رسـالته التلغرافيـة الأولى إشـارة إلى «تدخل الأجانب فـي الشؤون الداخليـة للبلـد» وإلى تصرفـات الأوربيين بما «يتنافى صراحة مع القرآن الكـريم والشـريعة الإلهيـة واستقلال البلاد ويُخلّ بنظـام الحكـم ويـؤدي إلى اسـتياء عامـة الشعب».. وذكر فـي الرسالة واقعة شيراز ونفـي السيد علي اكـبر فال أسيري[2] .

ووصلت الرسالة إلى ناصر الدين شـاه عـن طريـق «كـامران ميرزا نائب السلطنة» فأجابه الشاه برسالة يشرح فيـها مـا يجـرّه إلغاء الامتياز من مشاكل للدولة ولخزانة الدولـة. فأرسـل المـيرزا الشيرازي رسالة أخرى كانت لهجتها أشدّ من الأولى، جاء فيها:

---

(١) ـ الكربلائي، مصدر سابق / ٣٢.

(٢) ـ نفس المصدر / ٣٦.

«لقد رفعت لكم تلغرافاً بشأن مفاسد التدخل الأجنبي في مملكة إيران وجاءني الجواب ينمّ عن عدم تفهّم المسؤولين لمفاسد تنفيذ هذه الأمور. ولما كان الإغماض عنها يتنافى مع رعاية حقوق الإسلام، رأيت أن أكتب لكم ثانية ذاكراً مزيداً من هذه المفاسد.

أي مفسدة أكبر من اختلال قوانين البلاد ومصادرة استقلالها وتفرق شعبها واليأس من ألطاف السلطان؟ ألم تر أن أولياء الدين المبين وسلاطين المسلمين شكر اللّه مساعيهم بذلوا خلال القرون المتوالية النفس والنفيس من أجل إعلاء كلمة الإسلام، فكيف نرى اليوم من أجل منفعة رخيصة أو دفع مفسدة زهيدة تنسى كل تلك المصالح ويفسح المجال للكفرة أن يسيطروا على معايش المسلمين وتجارتهم، ويخالطوهم مضطرين، ويرضخوا لذل خدمتهم، فتشيع بالتدريج المنكرات وتفسد العقائد ويختل نظام الشريعة الإسلامية...»[1].

وكان جواب ناصر الدين شاه استعلائياً مغروراً جاء فيه:

«سنرسل لكم الجواب بالبريد لما فيه من تفاصيل وستلاحظون أن الدولة لم تسلم إلى الآخرين أبداً شأن البلاد واستقلالها وحفظ ناموس الشعب ومصالحه وحريته. وستسعى جادّة لحفظها إن شاء

---

(١) ـ ناظم الإسلام الكرماني، مصدر سابق / ٢٤.

الله تعالى»[1] .

مواقف العلماء هذه من قضية التبغ وقبلها من قضية «رويتر» تدل على ضمير ديني يقظ يأبى أي تسلّط أجنبي على مقدارت المسلمين. بهذا الوجدان الديني كان حماة الدين من العلماء يرون بأم أعينهم أن خطة البريطانيين من وراء هذه الشركة السيطرة على «بوابة الهند» كما سيطروا من قبل على «شبه القارة».

تصاعد المقاومة السلبية

حين رأى العلماء والناس أن النصح قد أعياهم، وأن المواجهة المباشرة غير ممكنة عمدوا إلى المقاومة السلبية لاحباط أهداف الشركة الغازية، نذكر من ذلك النصوص التالية:

يقول الكربلائي: «... كثير من المسلمين الغيارى لم يرضخوا لإذلال الإفرنج، فقسموا أموالهم (محاصيلهم من التبغ والتنباك) سراً بين الفقراء مجاناً، وبعضهم عمد مندفعاً بغيرته الإسلامية إلى إحراق أمواله جميعاً»[2] ، ويمثل لذلك بتاجر أحرق اثني عشر كيساً من التنباك كي لا يضطر إلى بيعها للشركة المحتكرة.

ويبدو أن حركة المقاومة السلبية كانت في أصفهان أكثر

---

(١) ـ الكربلائي، مصدر سابق /٤٤.

(٢) ـ نفس المصدر / ٤١.

تنظيماً وانسجاماً: «.. وكان علماء أصفهان كثّر اللّه أمثالهم قد أبـوا الرضوخ بأجمعهم ، وأمروا المسلمين بالامتناع. والمتدينون المتعقّلـون استجابوا لهذا الأمر. واتسعت كلمة العلمـاء لتشـمل كـل أصفـهان وماحولها. وأدى هذا إلى وقفة فـي أعمال الشـركة. لكـن علمـاء سائر المناطق وخاصة دار الخلافة (طهران) لم يحتذوا حـذو علمـاء أصفهان خوفاً من أن يكون ذلك من باب دفـع الفاسـد بالأفسـد. ولذلك لم يكن موقف علماء اصفهان ذا تأثير يذكـر علـى أعمـال الشركة فـي سائر أنحاء البلاد. ومـع ذلـك تعـرّض العلمـاء فـي اصفهان إلى أنواع المصائب والبلايا من قبل الحكومة. وهذه الوقفـة اليسيرة التـي حدثت فـي أعمال الشـركة فـي اصفـهان أثـارت مسؤولـي الشركة لأن يدفعوا الحكومة إلى إرسـال برقيـات لـوم وتقريع إلى علماء اصفهان. ومن ذلك تهديدها لجنـاب المسـتطاب الحاج الشيخ محمد تقي المعروف بآقـا نجفـي سـلّمه اللّـه تعـالى وإنذارها إياه أن يبيح استعمال التدخين أو يرحل عن دار السلطنة (اصفهان)، وإن لم يفعل هدم بيته على رأسه !!

ومع ذلك لم تثن هذه التـهديدات عزمـه ولم توهـن اسـتقامته فوقف كالطود الأشم أمامـها. وإذا اسـتثنينا واحـداً أو اثنـين مـن المرتزقة على فتات موائد المنـاصب والرواتـب والمحسـوبين علـى العلماء فان كل علمـاء دار السـلطنة (اصفـهان) بمقتضـى واجبـهم

ومنصبهم الكبير قاوموا أشدّ المقاومة أمام تهديدات الحكومة. غير أنهم كانوا قلقين على مستقبل هذه النهضة ومصير المسلمين.من هنا فقد توفرت لنا معلومات عن عزم بعض علماء دار السلطنة - ممن صان عرض الشريعة ولكنه لم يستطع المقاومة أمام تهديدات الحكومة - على السفر والاغتراب . ومنهم جناب المستطاب «آقا منير الدين» وهو من علماء اصفهان المبرزين والمتازين، وممن الذين يرجع لهم عامة الناس. لقد تلقى هذا العالم تهديدات شديدة تأمره أن يعلن تجويز التدخين على المنابر وأن يدخن هو علناً أمام الناس، فما كان منه أمام هذه التهديدات إلاّ أن خرج سرّاً من المدينة في خوف واضطراب وتوجه إلى مدينة مشهد..»[1].

رغم ما كانت تواجه الشركة صاحبة الامتياز من سخط الشعب واعتراض القادة الدينيين فإنها واصلت أعمالها بكل شدّة، وأخذت تشتري التنباك من المزارعين بأسعار زهيدة، يقول الشيخ الكربلائي «.. كان التنباك المنظّف يشتريه غير الإفرنجي بسبعة ريالات للمن الواحد، بينما هذا الإفرنجي يشترية بأربعة ريالات ونصف بل أقل من ذلك أحياناً..»[2].

وأخذ هؤلاء يستخدمون العملاء والجواسيس كي يراقبوا

---

(١) ـ نفس المصدر / ٥٠.

(٢) ـ نفس المصدر / ٤٨.

المزارعين والمستودعات، مما أثار مشاكل إجتماعية جمّة.

فتوى تحريم التنباك

تجمعت الظروف لتمهّد إلى صدور الفتوى التاريخية لتحريم التنباك. فبعد أن بلغ السخط الاجتماعي ذروته ويئس العلماء من إقناع الدولة بإلغاء امتياز احتكار التبغ أصدر الميرزا حسن الشيرازي فتواه المعروفة الموجزة:

«اليوم استعمال التنباك والتبغ بأي نحو كان في حكم محاربة إمام الزمان عجل اللّه تعالى فرجه» [1].

هذه الفتوى سرت كالنار في الهشيم، وانتشرت خلال مدة قصيرة في جميع أرجاء إيران، وواجهت استجابة كاملة، فهزّت أركان حكومة ناصر الدين شاه. ويذكر المورخ الإيراني ناظم الإسلام الكرماني وقائع طريفة في هذا المجال ننقلها من كتابه: «تاريخ بيداري إيرانيان» (تاريخ يقظة الايرانيين):

«.. بشكل عام انتشر هذا الحكم في بلاد إيران وأطاعه الجميع، فتركوا التدخين. ولما آل الأمر إلى ما آل رفعت الشركة

---

(١) ـ نص الفتوى بالفارسية: (اليوم استعمال تنباكو وتوتون باي نحو كان محاربة با امام زمان است عجل الله تعالى فرجه).

شكوى عن طريق قوام الدولة وزير الخارجية إلى ناصر الدين شاه، أرسل الشاه «عبد اللّه خان والي» إلى الميرزا الآشتياني، وأمره أن يدخن النارجيلة أمام الملأ العام أو أن يخرج من إيران. فقبل الميرزا الشق الثاني، وكان يهم بمغادرة طهران إذ خرج أهالي طهران بقضّهم وقضيضهم، وحدث زلزال في أركان المدينة، وكلهم يصيح وا إسلاماه، وتجمعوا حول منزل الميرزا، ولم تمرّ ساعة حتى أغلقت جميع الدكاكين والمحلات..»[1].

العلماء المعاصرون مثل السيد محمد رضا الطباطبائي والسيد علي أكبر التفرشي اجتمعوا في منزل الميرزا الآشتياني. بعث ناصر الدين شاه رسالة شفوية عن طريق عبد اللّه خان الوالي وآخرين إلى الميرزا الآشتياني مفادها: «إن الشاه يقول: لقد أوقفنا الامتياز الداخلي في إيران، وأهالي إيران أحرار على الصعيد الوطني، وليس على الصعيد الداخلي احتكار للبيع والشراء، لكن امتياز المبيعات الخارجية خاص بالشركة، فكفّوا عن معارضة الحكومة، ودخنوا النارجيلة أمام الناس». وهذه الرسالة تتضمن تراجعاً نسبياً من الحكومة واستسلاماً لنصف مطاليب المسلمين. لكن جواب الآشتياني كان متصلباً لايقبل أية مداهنة، قال: «لا أصدر رأياً خلاف الحكم (أي حكم الميرزا الشيرازي)

(١) ـ ناظم الإسلام كرماني، مصدر سابق / ١٢.

ولا أشق عصا المسلمين». توترت أعصاب عبد اللّه خان الوالـــي، فأعاد القول مهدداً: «.. لابد أن تدخنوا النارجيلة». وهنـــا تدخـل السيد محمد رضا الطباطبائي، وهو مـــن العلمـاء الحـاضرين فـــي الجلسة، فرفع صوته بلعن الشاه ولعن الوالـي، وقال له: «أخرج يـا ملعون من مجلس المسلمين».

وحين رأى الناس التغير فـي وجه الطباطبائي ثارت ثـائرتهم وكادوا يقضون على رسل الشاه لولا أن تدخّل بعضـهم فـأنقذهم، واصطحبهم إلى قصر الشاه، وتبعهم جماعة مـن النـاس فـاجتمعوا حول القصر، فأطلق عليهم «آقا بالاخان» كما ذكرنـا الرصـاص، فاستشهد عدد وجرح آخرون، وحمل النـاس جثث الشـهداء إلى منزل الآشتيانـي.

وجدير بنا أن نقرأ منشوراً من المناشير الكثيرة التـي صـدرت آنذاك، فهي تمثل أدبيات نهضة التنباك، وهذا المنشور ينقلـه نـاظم الإسلام الكرمانـي، ويقول إنه صدر فـــي أواخـر جمـادى الأولى سنة ١٣٠٩ عـن أحـد العلمـاء وعلـق علـى حيطـان المـدارس والمساجد..»[١] ومما جاء فـي هذا المنشور:

«بسم اللّه الرحمـن الرحيـم. بالنسـبة لمسـألة التبـغ والتنبـاك والشخص المستأجر البريطانـي، وحكاية منع استعمالها مـن قبـل

---

(١) ـ نفس المصدر / ٣٥.

رؤساء الدين، لابد أولاً أن نذكر أنه إذا ملك شخص عقاراً فلا بـدّ أن يعمل على سدّ كل الثغرات التـي يحتمل ورود الأجنبـي منـها إلى عقاره. وهذه من المسلّمات ومن الأصول القطعية لـدى جميـع أرباب العقول. ولو أن العاقل رأى شـخصاً يدخـل عليـه البيـت، واحتمل أن هذا الشخص سوف يدّعي بعد حين مالكية هذا البيت، فلا يسمح له بالدخول من البداية حتى ولو كان هذا الشخص مـن أقرب الناس إليه. فما بالك إذا كان الداخل عدواً قوياً واحتمل أن يشنّ عليه هجوماً مباغتاً لقتله.. من الطبيعي أن يبذل هـذا العـاقل كل إمكاناته لسدّ الثغرات أمام نفوذ مثل هذا الشخص.. ثم إنه مـن الواضح البيّن «كالشمس فـي كبد السماء» ما فعله البريطانيون من مكر وتآمر بشأن شعوب الهند ومصر والبلدان الأخرى. لقد قدمـوا إلى الهنـد باسـم التجـارة، ثم اسـتولوا علـى الهنـد دون أن يفـوا بعهودهم. وقهروا مصر على هذا المنوال.. وجاؤوا الآن إلى إيران..

أليس من المحتمل أنهم يخبّئون فـي أمتعتهم ووارداتهم أسـلحة ثقيلة وخفيفة ليستفيدوا منـها فـي عمليـة الاسـتيلاء؟! توزيـع الرشاوى واستخدام الأفراد وإعدادهم دليل واضح على مـا يـدور فـي رؤوسهم من آمال طويلة وأمان عريضة. ودفع الضرر المظنون بل المحتمل لازم عقلاً.. والحـق أن هـذه الكلمـة الجامعـة (فتـوى الشيرازي) وقعت فـي القلوب موقعها، وفعلت مـا لم تفعلـه أكـبر

الأسلحة النارية.. مَثَل حكم الميرزا أدام اللّه ظلــه العالــي كمثـل حكم الإمـــام الحجـة، ونقـض حكمـه نقـض لحكـم الامـام(ع) .. والتشكيك فـي حكمه مثل التشكيك فـي القرآن».

ومن الأمور التـي تروج فـي مثل هذه الظـروف الإشـاعات، فقد راجت إشاعة قرب صدور حكم الجهاد من الميرزا الشـيرازي. وهُرِع الناس يجمعون الأسلحة ويستعدون للجهاد ويودعون الأهل والنساء، ففزع الأجانب وخافوا على أرواحهم وطلبوا الضمان مـن الحكومة. وحار ناصر الدين شاه فـي أمره.

بين الشاه ناصر الدين والعلماء

طفق الشاه ناصر الدين القاجاري يبحث عن وسيلة للتخلـص من ورطته. لم يكن يتصور أن الموقف يتأزم إلى هـــذا الحـدّ. دعـا العلماء لعقد اجتماع فـي البلاط لتدارس المسـألة علـى أمـل أن يسترضيهم. حضر فـي هذا المجلـس المـيرزا حسـن الآشتيانـــي، والسيد علي أكبر التفرشي، والشـيخ فضـل اللّـه النـوري، وإمـام الجمعة، والسيد محمد رضا الطباطبائي، والسيد عبد اللّه البهبهانــي، والآخوند ملا محمد تقي الكاشانـي. ومن جـانب الدولـة حضـره: نائب السلطنة كامران ميرزا،والصدر الأعظم أمين السلطان، والميرزا علي خان أمين الدولة، ومشير الدولة، ومخبر الدولة، وقوام الدولة.

بدأت الجلسة بقراءة نص اتفاقية الامتياز، وقال متحدث الدولة مخاطباً العلماء: لقد أمر الشاه أن تقرأ عليكم نصوص اتفاقية الامتياز، وأنتم باعتباركم علماء الشريعة وقادة الملّة، تستطيعون تغيير ما وجدتموه في هذا الاتفاق معارضاً لمصلحة الشعب وأحكام الشريعة.

ثم بدأت قراءة النص. وكان عنوان الاتفاقية يحمل كلمة «منوپل»، سأل العلماء عن معنى هذه الكلمة. فقالوا بمعنى «الامتياز، والانحصار»، و«منوپل شراء وبيع التنباك» يعني انحصار التعامل بالتبغ والتنباك في البلد بشخص صاحب الامتياز (وهو مثلا الميجر تالبوت)، وليس لأحدٍ حق في البلد أن يتعامل بهذه المادة إلا بإذنه.

بعد إعطاء هذه التوضيحات للعلماء (الذين يسميهم صاحب كتاب «تاريخ يقظة الإيرانيين»: أولياءَ الشعب) قالوا: هذا أول التزام في الاتفاقية يتعارض وأحكام الشريعة والمبادئ الوطنية. وأصرّوا على حذف هذه الكلمة. بذل رجال الدولة جهداً كثيراً لإقناع العلماء في ذلك المجلس بالعدول عن موقفهم، وحاولوا أن يميّعوا المسألة ويقلّلوا من أهميتها، وأن يدخلوها في مجالات المصالح والتأويلات و«الخدع الشرعية» ! ولكنهم واجهوا مقاومة صلبة. وكان جواب العلماء: نحن لسنا مشرّعين، وحلال محمد

حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة. ونحن علماء الشريعة نتحمل مسؤولية بيان الحلال والحرام لا غير، والحكم الذي تقرر في هذا المجال لا يقبل التغيير.

وهكذا سدّ العلماء الطريق أمام رجال الحكومة، فضاقت عليهم الحيلة، «عندئذٍ عمد أمين السلطان إلى طريقة أخرى، قال للعلماء: أقول لكم بصراحة إن الشاه قال: أي تغيير أو تبديل في هذه الاتفاقية متعذر على الدولة، وهو في حكم المحال والممتنع، فلا تفكروا في ذلك أبداً، وفكروا في حلّ آخر. فأجابه العلماء بكل بساطة: نحن أيضاً نقول لكم بكل صراحة، لا نستطيع أن نحلل ما حرّمته الشريعة، والتعاون مع الحكومة في هذه الاتفاقية محال وممتنع أيضاً. أضف إلى ذلك، ما دورنا نحن في حكم تحريم التدخين؟! لقد صدر الحكم - كما تعلمون - من حضرة حجة الإسلام ونائب الامام والمجتهد المقلَّد الواجب الاتباع الساكن في سرّ من رأى (سامراء)، وهذا الحكم ما إن صدر حتى عمّ البلاد في أقل من نصف نهار، وأطاعه الجميع، ونحن أيضاً ممن أطاعه»[1].

حين يئس رجال الحكومة من التفاوض لجأوا إلى التهديد، فقال مشير الدولة مخاطباً العلماء: «أيها السادة فكروا في عواقب

---

(١) ـ ناظم الإسلام كرماني، مصدر سابق / ٣٧.

هذا الإصرار». ثار السيد علي أكبر التفرشي أمام هذا التهديد وقال: «ما هذا الهُراء؟ ما معناه؟ ماذا تريدون أن تفعلوا بنا؟». فتحدث قوام الدولة وقال: إلغاء هذه الاتفاقية محال وممتنع. عاد السيد علي أكبر وقال: «يبدو أنك أنت رئيس دائرة التدخين واتفاقية رجى» ! فقال أمين السلطان: «لا هذا قوام الدولة وزير الخارجية». فقال السيد محمد رضا الطباطبائي: «إذا كان هذا الحكم قد صدر عن الدولة فلابد أن توقّع عليه الأمّة، وإذا كان قد صدر عن شخص الشاه فلم يكن ذلك من حقّه أبداً».

انظر إلى جذور الديمقراطية والمشروطة في الفكر الديني وبين علماء المسلمين، وانظر إلى درجة شهامة المرحوم السيد محمد رضا الطباطبائي في موقفه من سلطة الشاه المطلقة وتصريحه برفضها أمام كبار رجال الدولة. وافهم من ذلك دور الدين في تحرير الأمة من السيطرة الاستعمارية ومن الحكم الديكتاتوري في هذا البلد المسلم.

على أي حال، لم يستطع رجال الدولة أن يتجاوزوا العبارة الأولى من اتفاقية التنباك، ووجدوا أن الطريق أمامهم مسدود تماماً، فصرفوا النظر عن قراءة بقية الاتفاقية، وانتهى المجلس بأن يتعهّد أمين السلطان من جانب علماء الشعب أن يسعى إلى فسخ الاتفاقية، شرط أن يعلن العلماء بعد إلغاء الاتفاقية إباحةَ التدخين

ونفي فتوى الجهاد.

وتواصلت انتفاضة الشعب المسلم بقيادة علمائه الكبار يتزعمهم المرحوم الميرزا الشيرازي، وحققت انتصارها، واضطر الشاه ناصر الدين إلى الغاء الاتفاقية، واقترض مبلغ ٥٠٠ ألف ليرة من البنك الشاهنشاهي الذي أسسه البريطانيون أنفسهم، ودَفَعَه غرامة إلى الشركة البريطانية[1].

هذا التحرك الشعبي الناجح كان مكسباً كبيراً ألفت إليه أنظار المراقبين في الداخل والخارج، ولا بأس أن نعرض بعض ما قيل في هذه الواقعة.

تقول «نيكي كدي» مؤلفة كتاب «مقاطعة التنباك»: «الاعتراض على امتياز التنباك أول حركة شعبية ناجحة في تاريخ إيران الحديث، انتهت بتراجع الحكومة وانتصار المعترضين في مطالبتهم بإلغاء الامتياز إلغاءً تاماً. هذا النجاح فتح أعين المعارضة لأول مرة على إمكان الوقوف بوجه الدولة، حتى حين يكون ذلك الوقوف مضراً بالقوى الأوربية. هذه الحركة تنطوي على أول اتحاد مظفّر بين العلماء والإصلاحيين والساخطين الإيرانيين خاصة التجار.. هذا الاتحاد الذي سيظهر في المواقف

---

(١) - كسروي التبريزي، مصدر سابق / ٢٣.

الاعتراضية التالية ويؤتي أكله فـي حركة المشروطة»[1].

السيد جمال الدين الأسد آبادي (المعـروف بالأفغانـي) يذكـر فـي رسالته إلى كبار العلماء مايلي: «الشـعوب الأخـرى تعجّبـوا أيضاً مما فـي هذه الفتوى (فتوى تحريم التنباك) مـن قـدرة ونفـوذ كلمة وسرعة تأثير، وبهت الكفار»[2].

ويقول: «كل هذا الخبط والخطأ سببه غرور الحاكمين. كـل مـا بذلته سلطنتهم (رأس جهازهم الحاكم) من جهود لإضعـاف قـدرة رجال الدين قد تبدّد بسبب جهل مسؤولـي الجهاز المالـي، الذيـن وفروا فرصة إظهار هذه القدرة بشكل لم يسبق له نظير فـي عـالم التشيع منذ صدر الإسلام حتى يومنا هذا. إنهم مثل طبيـب يجهـل الطب ويزيد العلّة»[3].

ويروي اعتماد السلطنة: «أن السفير البريطانـي قـال للحكيـم (طولوزان) لم أكن أعـلم أن الإيرانيين يتحلـون بهذه الدرجـة مـن

---

(١) ـ نيكي ريتشارد كدي، مقاطعـة التنبـاك في إيـران / ١ مـن الترجمـة الفارسية، طهران، ١٣٥٦هـ . ش.

(٢) ـ صـدر الديـن واثقـي، سـيد جمـال الديـن حسـيني پايـسه گـذار نهضتهاي اسلامي /السيد جمـال الديـن الحسـيني مؤسـس النـهضات الاسلامية/ ٢٢٠، طهران، ١٣٤٨ هـ .ش.

(٣) ـ نفس المصدر.

الغَيرة ! ما أعظمه من شعب ! لقد جعلوا البريطانيين قاطبة يشعرون بالخوف على أنفسهم»[1].

ويقول محمد رضا الزنجاني: «نُقل عن مصدر موثوق أن الحكيم الفرنسي طولوزان الذي كان من الأطباء الأوربيين المعروفين وطبيب الشاه الخاص قال: لم أكن أعرف معنى طلب الفرج في أدعية المسلمين، حتى حدثت هذه الواقعة (انتفاضة التنباك) ففهمت معنى الفرج وفهمت كيف يمكن أن تحدث واقعة لا يُتصوّر وقوعها أبداً»[2].

تحريف الحقائق

من كل الوثائق والنصوص السابقة اتضحت لنا عظمة حركة التنباك، والدافع الديني ودور القيادة الدينية فيها. لقد حدثت هذه الحركة في وقت تظافرت فيه جهود الأجانب وعملائهم لإضعاف الدين وفصل رجاله عن المجتمع. لكن فتوى الميرزا الشيرازي قد أحبطت كل هذه الجهود، وبلورت الروح الدينية بأروع أشكالها.

ولابد من الإشارة هنا إلى بعض الأقلام التي حاولت أن

---

(١) ـ نفس المصدر.

(٢) ـ نفس المصدر.

تحرف الحقائق وتُبعد دور الدين في هذه الحركة. وأصحابها إما حاقدون على الإسلام أو جاهلون بقدرته أو واقعون في أسر القوالب الماركسية. هؤلاء حاولوا بأساليب ملتوية غير منصفة أن يتجاهلوا الدافع الديني في هذه النهضة، وأن يعطوا العلماء فيها دوراً هامشياً تابعاً (لاقيادياً). بل يصوروا وقوفهم بوجه الحركة أحياناً !!

على سبيل المثال حاول فريدون آدميّت أن يحرّف معنى العبارات الواردة في كتاب الشيخ حسن الكربلائي. وأينما وجد نصاً يتحدث عن توجّه الناس الساخطين على اتفاقية التنباك إلى بيوت العلماء، يفسّره بأن الناس هم الذين أجبروا العلماء على التحرك، والعلماء تحركوا على أثر هذا الضغط الشعبي كي لا يفقدوا مكانتهم !! وهذا تحريف واضح للوقائع والأحداث. فالمعروف أنّ الشعب الايراني يرى في العلماء وبيوت العلماء ملجأ وملاذاً ينتجه إليه متى ما اعتراه خطب. وكانت بيوت العلماء آنئذٍ تمثل رمز المعارضة ضد التنباك، لأن هذه المعارضة قد اتخذت منذ خطواتها الأولى طابعاً دينياً يقوم على أساس رفض تدخّل الأجانب الكفار في شؤون البلاد، ومنع سيطرتهم على مقدرات الشعب بحكم الشريعة الإسلامية المقدسة. وهذا ما تؤيده كل الأحداث والوقائع والنصوص التي ذكرناها، بل يؤيدها حتى

الذين لايحملون ولاء للدين ولا لأهله وعلمائه من أمثال أحمد كسروي[1].

وفريدون آدميت مثل كثير من المثقفين الإيرانيين المتغربين لأهمّ لهم سوى إبعاد الدين عن الساحة الاجتماعية، ووقعوا جرّاء ذلك دائماً في مغالطات وتحريف لأوضح الحقائق، بل وقعوا في مستنقع الماسونية والعمالة وتقديم مقدرات الأمة قرباناً على مذبح مصالح القوى الأوروبية المستكبرة.

♑ ♑ ♑

(١) ـ كسروي تبريزي، مصدر سابق / ٢٣.

موثرات أخرى فـي المشروطة

الحاج زين العابدين المراغي

لابد لنا ونحن نتقصّى جذور نهضة المشروطة أن نقف عند هذا الرجل الذي كان له تأثير بارز على نموّ التيار الدستوري. حاول في صباه كسب العلم ولم يحالفه التوفيق. في العشرين من عمره دخل التجارة وفشل فيها، فهاجر إلى القفقاس وعمل كاسباً هناك، ثم هاجر إلى تفليس، وعمل هناك في التجارة وفي القنصلية الإيرانية. وأفلس ثانية في تجارته فهاجر إلى «كريمة»، وطُلب منه أن يحمل الجنسية الروسية فوافق على ذلك، ثم ذهب إلى استانبول وتزوج هناك وعاد إلى روسيا حيث أقام خمسة عشر عاماً. ثم تواجهه ظروف تثير فيه روح حبّ وطنه، فيجمع أمواله، ويذهب إلى استانبول ومنها إلى مكة المكرمة للحج، ولدى عودته إلى استانبول يحثه سفير إيران هناك على ترك جنسيته الروسية والعودة إلى الجنسية الإيرانية، فيكتب رسالة إلى إمبراطور روسيا جاء فيها:

«كل إنسان له مشاعره الخاصة، وطبائع الأفراد مختلفة، وإني

أشعر بالعار أن أكون مسلماً ولا أنضوي تحت لواء سلطان مسلم. إيرانيتي التي هي في رأيك ذلة أفضل ألف مرة من عزّة روسيّتي». يوافق الإمبراطور على إلغاء جنسيته الروسية، وتطول المراحل الإدارية لهذا الإلغاء ثلاث سنوات كان خلالها المراغي يعدّ اللحظات للحصول على وثيقة الإلغاء، وحصل عليها سنة ١٩٠٤، وبقي المراغي حتى آخر حياته في تركيا، وخلال هذه المدّة ترك كتابات كان لها دور مهم في نشر الفكر الدستوري.

أهمّ آثاره «رحلة إبراهيم بيك» أو «سياحتنامه إبراهيم بيك» ومقالات في صحيفة «حبل المتين» وصحيفة «شمس» في استانبول. يقول في السياحتنامه:

«كما ذكرت في المقدمة، ليس هدفي من نشر هذا الكتاب نفعاً شخصياً، بل إني رأيت في عملي هذا أداء لما عليّ من دين تجاه وطني، لذلك تحملت كل نفقاته عن طيب نفس علّي أستطيع أن أستثير الهمم المخلصة وأحفّزها للنهوض بأعباء إصلاح مافسد في هذا الوطن. لايجوز أن يدفع هذا الوضع المزري إلى اليأس، فكل المشاكل تتضاءل أمام سعي الشعب وهمّته، ولقد قيل: «همّة الرجال تقلع الجبال».

آمل أن لا يرضخ رجال الشعب لحالة تذلّهم وتذل أمتهم، وأن يعتبروا من الماضي لإصلاح المستقبل ولتوفير العيش الكريم لعامة

الناس، كي يتمتع وطننا العزيز بدفء أشعة المدنية الحقيقية اللائقة بديننا وإنسانيتنا... ولكي يرفرف على كل مدننا وقرانا بيرق العدالة وعليه شعار الدولة في جانب وآية «الفتح» في جانب آخر. ولتنتشر في مدننا أبنية محاكم العدالة فاتحة أبوابها للجميع ويتساوى أمامها الغني والفقير والأسير والأمير، وتحفظ فيها حقوق عباد اللّه من العدوان، ويضع القضاة نصب أعينهم نهج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات اللّه وسلامه عليه..»[1].

«... شمس المدنية قد سطعت اليوم من جانب الغرب، وعم نورها الخافقين، وتستطيع كل أمة أن تستثمر أشعتها، وليس لنا عذر في تقصيرنا.

في الواقع لا يوجد بلد يتعرض فيه تاجر محترم لاستخفاف فرّاش وقح سوى إيران. في كل مكان حقّ ومحاسبة إلا إيران. واجبات الحكام والمحكومين معينة إلا إيران. في كل البلدان ضرائب الدولة مُقسّمة بالتساوي إلا إيران. شعوب البلدان تقدّم طواعية ما عليها من ضرائب إلى الدولة إلا شعبنا. في كل بلد تشترك الحكومة والشعب في صيانة الوطن إلا إيران. في كل بقاع الأرض زعماء الدين لا يتدخلون في شؤون السياسة إلا

---

(١) ـ زين العابدين المراغي، سياحتنامه ابراهيم بك، القاهرة ١٣٣٤ هـ . ص٣٣٦.

إيران(!).. آه، لم يذق رجال بلدنا بَعدُ طعم حرية الفكر وحرية القلم، ولا يعلمون ما تؤدي إليه هذه النعمة الكبرى من عمار البلاد وعز الدولة والشعب. مع أنهم جميعاً يعترفون بهذه الحقيقة، لكنهم لا يهمّون أن يجرّبوا تحقّق هذه اللذة. من المؤسف أن نرى كلمة «الأمر لا يعنيني» تتكرر على الألسن باستمرار. الجماعة البشرية مكلّفة بأن تطوي مراحل الترقي والتمدن، وأن توفّر أسباب حرية الفكر والقلم بأي نحو كان شريطة أن لا تخرج عن دائرة الأدب والإنسانية، لتعيش مرفوعة الهام بين الأمم. وإن لم تنهض بهذا التكليف تبقى مهانة محتقرة في أنظار الشعوب. ولقد أضحى تقدم الشعوب الغربية حقيقة أوضح من الشمس. لقد حققوا من المفاخر شيئاً كثيراً، وهم لا يعدّوننا ضمن الموجودات(!) وإذا أمعنا النظر في أسباب هذا الرقي وجدناها حرية الفكر والقلم لاغير»[1] .

يظهر من هذا النص وما كتبه في صفحات «سياحتنامه» أن الرجل متألم جداً مما يعانيه بلده في العهد القاجاري من أوضاع مزرية على جميع الأصعدة. ويبدو أنه مخلص في دعوته إلى إصلاح الأوضاع والقضاء على المفاسد الاجتماعية والسياسية

---

(١) ـ نفس المصدر / ٢٣٧.

والثقافية. ولكن نظرته الإصلاحية يشوبها الشيء الكثير من روح الهزيمة التي سيطرت على المسلمين في عصر الضعف والانحطاط. يرى أن الطريق الوحيد لخلاص بلاده هو انتهاج السبيل الذي سلكه الغرب، وهو رأي أكثر التقدميين الإصلاحيين في ذلك الزمان. هؤلاء لم يعرفوا ما ينطوي عليه الغرب من روح استكبار وسيطرة وهيمنة، لم يفهموا السياسة الميكيافيلية التي ينهجها الغرب، ولم يدركوا الروح التوسعية التي يفرزها النظام الاقتصادي والسياسي الغربي.

لقد مارست الشعوب الإسلامية عامة تجربة العلاقة مع الغرب، وإيران أيضاً ذاقت مرارة هذه التجربة. أعطوا إيران ما تريد، أعطوها قروضاً مالية، ومصارف، ومدّوا لها سكك الحديد، وخرّجوا لها جامعيين، لكنهم فعلوا ذلك لا لإيران بل لمصالحهم. مدّوا سكك الحديد ليتوغلوا إلى داخل القرى والأرياف وينهبوا ثرواتها، ويمسخوا ثقافتها. وحين احتدمت الحرب اتخذوا من هذا البلد «جسراً للنصر». وفتحوا المصارف لادخار الأموال المستخرجة من كنوز أرض إيران على يد علماء الآثار الغربيين. ربّوا الجامعيين ليخرّجوا ملكم خان وآخونداوف وأمثالهما من العملاء الذين يحسنون عدة لغات، ولكن لا لخدمة تطور بلدهم بل لإعلان ولائهم وإخلاصهم لأسيادهم. عارضوا الاستبداد وقدّموا

وصفة الدستور، لا عن طيب في نفوسهم، بل لمعارضة منافسيهم الروس الذين يدافعون عن نظام استبداد السلطان. ولكن لا يفوّتون الفرصة عليهم في تقديم نسخة مشوّهة للدستور ليس فيها لعقيدة الناس ومقدّسات الناس أثر، وكل من يعارض هذه النسخة يتعرّض لأبشع أنواع التهريج والإهانة، بل ربما دفعوه إلى المشنقة كما فعلوا بالشيخ فضل اللّه النوري، وجعلوا ابنه يصفّق تحت أعواد المشنقة مبتهجاً بانتصار المشروطة !!

ومن مظاهر روح الهزيمة في فكر الرجل ورؤيته تبرّمه بتدخّل زعماء الدين الإيرانيين في السياسة، ظاناً أن هذا من عوامل تأخّر البلد، ويشترك معه في هذه الرؤية أيضاً كل المثقفين والتقدميين المهزومين أمام الغرب ووصفاته العلاجية الممسوخة. لقد مرّت أوربا بتجربة التحرر من الكنيسة كضرورة للتخلص من عوائق تقدمها، وهؤلاء يريدون تطبيق نفس التجربة في بلادهم، جاهلين أن علماء الدين في إيران هم الذين وقفوا بوجه كل عمليات إذلال هذا الشعب وإخضاعه والسيطرة على مقدراته. هم الذين خلّصوا البلاد من نير اتفاقيات الذل مثل «رويتر» و«لاتاري» و«رجي». فأين الإسلام من المسيحية الأوربية؟ وأين علماء الإسلام من رجال الكنيسة الأوربية؟ هل يمكن أن تخفى هذه الحقائق على هؤلاء المثقفين؟ ! إنها عوامل التقليد والانبهار

والهزيمة التي تجعل الإنسان يتنكر لأبسط الحقائق.

ومن الطريف أن هذا الرجل الذي يأسف على ظاهرة تدخل علماء الدين في السياسة، يرفع صوته في بعض فقرات «السياحتنامه» مطالباً علماء الدين بالتدخل لإزالة مافي البلد من منكرات ومحرمات، ومؤكداً على أن موقعهم من المجتمع يتطلب منهم موقفاً جاداً لإصلاح الأوضاع، لأن أوامرهم محترمة مطاعة، ولأنهم يحملون مسؤولية مواصلة الرسالة التي نهض بأعبائها الأنبياء والأئمة وأولياء الدين»[١].

مجموعة مشبوهة

نريد أن نقف هنا عند الميرزا آقا خان الكرماني وهو من الذين بلوروا التيارَ الإلحادي، والمشروطةَ الخالية من الشريعة والقوميةَ الإيرانية المتحسّسة من الإسلام[٢]. ويتهجّم بصراحة على كل المقدسات الإسلامية، وكان له تأثير على الجيل الذي ساهم

(١) ـ انظر : زين العابدين المراغي، مصدر سابق.

(٢) ـ تعبير المؤلف وسائر الكتاب الإيرانيين عن الحركة الدستورية الرافضة للشريعة هو: «مشروطيت» ـ (مطروحاً منها) «مشروعيت». وعن القومية الإيرانية الرافضة للإسلام : «إيرانيت» ـ «إسلاميت»، ذكرناه لما فيه من دقة. (المترجم).

فــي نشر فكرة الحركة الدستورية.

هذا الرجل يمثل حلقة من سلسلة مترابطــة مشــبوهة غامضــة بدأت بالظهور منذ أواخـر القـرن الثـامن عشـر الميـلادي هدفـها زعزعة عقائد الناس بطرق شتّى منها:

- إشاعة الغلو فــي الدين وخاصة فيما يرتبط بعقيدة الشيعة بآل البيت .
- تأسيس « الفرق » الدينية المنحرفة، و« المذاهب » الهدامة.
- إثارة الشكوك الإلحادية فــي الدين وفــي الرسالة الخاتمة.
- التركيز على القومية الإيرانية باعتبارهــا الأطروحــة البديلــة للإسلام.

الشيخ أحمد الاحسائي

ولنبـدأ بـأحد رؤوس هـذه المجموعـة وهـو « الشـيخ أحمـد الاحسائي ».

هذا الرجل ظهر بشكل مجهول، وأشاع أفكاراً هي مزيــج مـن غلوّ وخرافة وانحراف، ثم اختفى بشكل مجهول.

سمّى نفسه بالشيخ أحمد الاحسائي وأهل الاحساء فـي شـرق الجزيرة العربية لا يعرفون عنه ولا عــن أسـرته شـيئاً، ولم تعـرف المدارس الإسلامية فـي العالم الإسلامي عنه شيئاً.

يبدو أنه استطاع أن يحصل في البحرين على إجازة رواية الحديث من «الشيخ حسين آل عصفور» وعلى إجازة مماثلة من «الشيخ كاشف الغطاء» في النجف. وكلاهما صرّحا في الإجازة بعدم معرفتهما بالإحسائي، بل رأيا أوراقاً فيها شرح لكتاب «التبصرة» ادّعا أنه حرّرها بنفسه، وأقام الشهود على ذلك. وبعد أن افتضح أمر الرجل تبيّن أنه لم يكتبها وادّعاها كذباً لنفسه.

نشط هذا المتشيّخ في بثّ أفكاره وكان لها أثرها في إيران وملخصها:

«أن المعصومين الأربعة عشر[1] هم (الحقيقة المحمدية)، وهذه الحقيقة هي نفسها الحقيقة الإلهية !! ثم إنه هو (الشيخ أحمد) جزء من الحقيقة المحمدية، ومعرفته تشكل (الركن الرابع) من الدين. ومن عرف هذا الركن الرابع حقّ معرفته فقد أمن من عذاب النار ولو ارتكب المعاصي والمحرمات، وترك الواجبات».

ويذكر الشيخ الخالصي[2] أن هذا الرجل كان له الدور الكبير في إشاعة المنكرات والمعاصي بين الناس. وأصدر علماء النجف

---

(١) ـ وهم الرسول(ص)، وابنته فاطمة وعلي والحسن والحسين والأئمة التسعة من أولاد الحسين(ع).

(٢) ـ انظر الشيخ محمد الخالصي الكاظمي، مقدمة في ظهور الشيخية والبابية والبهائية.

وإيران على أثر ذلك الحكم بتكفيره، ثم اختفى فجأة ولم يُعلم له أثر. وشاع في إيران آنئذٍ أنه راهب مسيحي هدفه زلزلة وحدة المسلمين وزعزعة استقلال إيران.

السيد كاظم الرشتي

والحلقة التالية من هذه المجموعة المشبوهة رجل ظهر في كربلاء (من مدن العراق) فجأة، وسمى نفسه « السيد كاظم الرشتي» ولم يعرف أهالي رشت آنئذٍ عنه ولا عن أسرته شيئاً أبداً. كان ينفق الأموال الطائلة التي لا يستطيع أن ينفقها أكبر الأثرياء. وكانت له علاقات وثيقة مع الحكام والولاة العثمانيين في بغداد. ومع أن هؤلاء الحكام والولاة كانوا من السنّة المتعصبين، فقد تظاهر السيد بأنه من غلاة الشيعة !!

كان هذا الرجل نشطاً في إشاعة أفكار الشيخ أحمد الإحسائي، وكان الولاة العثمانيون يغدقون عليه المساعدات الكثيرة !

ومما يذكر أن والي بغداد «علي رضا باشا» كان متعصباً ضد الشيعة، وارتكب بحق الشيعة في خوزستان مجزرة رهيبة، ومع ذلك كانت له اتصالات مع «السيد كاظم الرشتي» وأعطاه مرّة قصيدة «عبد الباقي العمري» ليشرحها، فشرحها شرحاً مليئاً

بالغلوّ، وبقي كتاب «شرح القصيدة» من الكتب الدينيـة الأساسـية للفرقة «الشيخية».

كان للسيد كاظم هذا ثلاثة تلاميذ جاؤوا إلى إيران وكل واحد منهم أسس فرقاً دينية تسببت فـي تفريق النـاس وتمزيـق وحـدة المسلمين، ونقف قليلاً عند هؤلاء التلاميذ.

الميرزا علي محمد الباب

أحد هؤلاء الثلاثة « الميرزا علي محمـد البـاب » وهـو أشـبه بالمجانين. ألف كتباً بالعربية يخبط فيها خبط عشواء، ولم يراع قاعدة عقلية بل ولا نحوية أيضاً فيما كتب. وحين سُئل عـن سـبب هـذا اللحن فـي كتابته قال:

«كانت اللغة العربية مذنبة فقيّدهـا الـربّ بقيـود النحـو، وأنـا شفعت لها عند الربّ فتحررت من قيودها !! فلا ضير بعـد اليـوم أن تجروا المنصوب، وترفعوا المجرور !! ».

وكان يقول: «لقد اكتمل الدين بظهوري، وأنا صورة تجمع علياً ومحمداً. وقد كانا منفردين فاجتمعا بشخصي» ولذلك سمـى نفسـه «علي محمد».

وقال له أحدهم يوماً ساخراً لماذا تدّعي أنك «الباب» مـع أن أرقام حروف اسمك (علي محمد) هـي نفـس أرقـام كلمـة «رب»

فصدّق الرجل ما قيل له وادّعى الربوبية (تعالى الرب العزيز) وقال: حين خُلق محمد وعلي بايعانـي، وأنا الـذي تنتظرونـه منـذ ألـف عام[1] !!

القي القبض عليه مرات فـي شيراز وتبريز، ولم يجر عليه حـد «الارتداد» بل بسبب «الجنون» كان يلقى فـي السجون. غـير أن الفتنة التـي أثارها أتباعه فـي إيران دفعت بالمرحوم «ميرزا تقـي خان أمير كبير» أن يعدمه، ويذكر أن سفير روسيا القيصرية فـي طهران «البرنس دالگوركي» كان وراء هذه الفتنة أيضاً.

بعد إعدام الباب تنازع على خلافته أخوان مـن أتباعـه همـا: «الميرزا حسين علي البهاء»، والآخر « الميرزا يحيـى صبـح أزل». وانقسم الأتباع أيضاً بين هذين المدعيين.ثم ظـهر المـيرزا آقاخـان الكرمانـي، فتزوج - كما سيأتي - من ابنـة المـيرزا يحيـى صبـح أزل، وأثنـى على هذا الميرزا وعلـى المـيرزا علـي محمـد البـاب والسيد كاظم الرشتـي، والشـيخ أحمـد الاحسـائي، واتخـذ موقفـاً مناهضاً لحسين علي البهاء وأتباعه البهائية.

وثانـي تلاميذ السـيد كـاظم هـو «كـريم خـان الكرمانـي» وأتباعه يسمون «الشيخية الركنية» والثالث هـو «المـيرزا شـفيع»

---

(١) ـ اعتضاد السلطنة، فتنه باب (فارسي)، شـرح عبـد الحسـين نوائـي، طهران.

الذي توجه إلى تبريز وعمل على إشاعة أفكار أستاذه في «الغلو».

وعلى العموم ظهرت على يد تلاميذ السيد كاظم فرق عديدة هي: الشيخية، والكشفية، والركنية، والاولادية، والباقرية، والبابية، والبهائية، والازلية، والشفيعية. وكلها استهدفت سلب عقيدة الإيرانيين ودفعهم نحو ارتكاب المحرمات والانغماس في الشهوات والمنكرات وترك العبادات والواجبات، والقضاء على الروح الوطنية فيهم وإعدادهم للتجسس واستخدام الأجنبي.

وقفة عند البابية

نقف قليلاً عند ارتباط البابية بالأجنبي لما لها من علاقة بالميرزا آقا خان الكرماني كما سنذكر.

١- «منوجهر گرجي» أسير أرمني اصطحبه آقا محمد خان القاجاري سنة ١٢٠٩هـ. ق. من تفليس، وأصبح من الخدم الخصيان في بيت حريم الشاه، ثم خادماً خاصاً للشاه... ولما أبداه من ذكاء وحنكة ولما حصل عليه من دعم روسي أصبح ذا مكانة في بلاط الشاه فتح علي... في زمن الشاه محمد القاجاري عُيّن حاكماً لأصفهان، وكان لهذا التعيين أثره السيّء على علماء الدين في إصفهان، فعارضوه بشدّة... عند ظهور فتنة البابية، نُقل علي

محمد الباب من شيراز إلى إصفهان فلقي من هذا الحاكم الأرمني كل حماية وساعده كثيراً على نشر آرائه. ولم يكن ذلك عن موقف إنساني من هذا الحاكم، لأن منوجهر گرجي - كما يقول اللورد كرزن - من الحكام القتلة الدمويين في إيران. ففي سنة ١٨٤١م قبر ثلاثمائة شخص وهم أحياء[١].

٢- يذكر «عبد الحسين آواره» وهو من أتباع الباب في كتابه «كواكب الدريّة» (فارسي): أن الباب حين كان في مازندران كان حراس الحدود الروس يحترمونه أشدّ الاحترام، وهمّوا أن يخلّصوه من يد المأمورين الإيرانيين، أو أن يهرّبوه إلى روسيا...[٢].

٣- يذكر صاحب كتاب «نقطة الكاف» (فارسي) وهو من كتب البابية الهامة:

«أن جناب «الحجّة» (من رؤوس البابية) حين يئس من «الأمير» (يقصد الميرزا تقي خان أمير كبير) وعلم أنه غير قادر على استعطافه، كتب عدة رسائل إلى وزراء خارجية الدول الأجنبية وذكر فيها الحالة.. وهؤلاء تدخلوا للشفاعة عند الأمير،

---

(١) ـ تاريخ رجال إيران، نقلاً عن: السيد محمد باقر النجفي، بهائيان (فارسي)، طهران، ١٣٥٧، ص٦١٦.

(٢) ـ نفس المصدر / ٦١٧.

فلم يقبل شفاعتهم.. سمعت أن أحد أسباب سخط قيصر روسيا على «أمير كبير» وعزله هو قتل هذه السلسلة المظلومة (يقصد الباب ومن لفّ لفه) . سفير روسيا وسفير الدولة العثمانية أنحيا باللائمة على «الأمير» بشأن قتل الحضرات.. وقيصر روسيا كان قد طلب في تبريز أن يكتب له بشأن حضرته (يقصد بشأن علي محمد الباب)، وحين وصلت هذه الرسالة كان حضرته قد استُشهد..![1] »

٤- ورد في أحد تقارير دالگوركي سفير قيصر روسيا لدى إيران إلى وزير خارجية بلاده:

«إنه لشيء جيد جداً أن تنهض فرقة البابية لمعارضة علماء الإسلام، وأن تبدأ ضدهم بنضال شديد وأن تتهمهم بالانحراف و...»[2].

الدلائل على ارتباط هذه الفرقة الضالة بالأجنبي كثيرة، وما عرضناه نموذج لذلك، وينبئ عن سعي الأجانب لزلزلة عقيدة الأمة المسلمة ولتمزيق صفوفها.

---

(١) - نفس المصدر / ٦١٨.

(٢) - شورش بابيان در إيران = تمرد البابيين في إيران، (١٨٤٨ - ١٨٨٥٢)، موسكو، المجمع العلمي للاتحاد السوفيتي، ج٣٠، ص ١٤٣ - ١٥٩؛ نقلاً عن النجفي، مصدر مذكور، ص ٦١٩..

الميرزا آقا خان الكرماني

نعود إلى الميرزا آقاخان الكرماني فهو مقصودنا الأول من هذه المجموعة المشبوهة. درس في كرمان مبادئ العلوم، وأبرز أساتذته «الحاج سيد جواد الشيرازي» فقد درس عنده أفكار «الملا صدرا الشيرازي» و«الشيخ أحمد الاحسائي» (١).

تعلم شيئاً من اللغة الفرنسية والإنجليزية، وحاول كثيراً أن يتعلم لغة الفرس القدماء.

من زملائه في كرمان «الشيخ أحمد روحي» (١٢٦٣ - ١٣١٤)، وسافر في العقد الرابع من عمره مع هذا الزميل إلى طهران، ثم إلى مشهد، ومنها إلى رشت، ثم تبريز، ثم بادكوبه، ثم اسلامبول، ثم توجه إلى قبرص لمقابلة «صبح أزل»، وهناك تزوج وزميله اثنتين من بنات «صبح أزل»، وعاد إلى اسلامبول وبعدها توجه إلى تبريز حيث قتل هناك، هو والشيخ أحمد روحي وشخص ثالث معهما هو «الميرزا حسن خبير الملك».

أما عقائد الميرزا آقاخان فيمكن تلخيصها فيما يلي:

١- يظهر من دراسته لأفكار الشيخ أحمد الاحسائي في كرمان، وزواجه من ابنة صبح أزل في قبرص ارتباطه الفكري والعملي بهذه المجموعة المشبوهة.

٢- دعا إلى فكرة وجود تعارض بين الدين والعقل وإلى وجود تناسب عكسي بينهما. وشرح بالتفصيل فكرته هذه مؤكداً أن الإيمان بالغيب والملائكة إنما هو نتيجة لتخلّف الإنسان في مضمار العقل[1] !

٣- حاول ميرزا آقاخان أن يضفي على إيران ما قبل الإسلام صفة الجلال والعظمة والرقيّ، ودافع بشكل مبتذل عن كورش وداريوش (من ملوك الاخمينيين) والاخمينيين والساسانيين، وكانت تلك بداية الطريق الذي تواصل عبر المثقفين القوميين الإيرانيين، وتوّجه(!) الشاه الأخير المقبور حين أعلن إقامة احتفالات مرور خمسة وعشرين قرناً على قيام الإمبراطورية الايرانية، ووقف على قبر كورش قائلاً: «نم هنيئاً فإننا يقظون» !!

٤- هاجم الفتح الإسلامي لإيران، واعتبره تخريباً للحضارة الفارسية القديمة، وحاول أن يخلق في النفوس عداء تجاه العرب، وعزا كل المفاسد الموجودة في إيران إلى تسرب العادات العربية ! ومن أقواله: «كل غصن من شجرة الأخلاق الدنيئة في إيران له جذور فيما غرسه العرب في هذا

---

(١) - فريدون آدميت، انديشه هاي ميرزا آقا خان كرماني (فارسي)، طهران ١٣٤٦، ص١١٩.

البلد»[1] !!

٥- هاجم الحجاب، زاعماً أن المرأة في إيران كانت قبل الإسلام متحرّرة، وأصبحت بعد الإسلام في سجن الحجاب معزولة مهجورة[2].

٦- هاجم الخط العربي الذي تكتب به اللغة الفارسية ، واعتبره من مظاهر تخلف الإيرانيين[3].

لقد خلق الميرزا آقا خان بأفكاره هذه تياراً تواصل عبر «الميرزا جهانگير صور اسرافيل» و«أحمد كسروي»، وتبناه كل أدعياء التقدمية في إيران. والأسرة البهلوية المقبورة استفادت كثيراً من هذا التيار لتشويه صورة الإسلام ولتثبيت حكمها على أساس من الأفكار القومية الإيرانية.

غير أن هذا التيار واجه أقلام المفكرين الملتزمين الأحرار، الذين أماطوا اللثام عن حقيقة النظام الاجتماعي في إيران قبل الإسلام، وبيّنوا ما كان عليه من ظلم وتمييز طبقي وتخلّف اجتماعي. وأوضحوا انحطاط المرأة ومكانتها الهابطة في تلك

---

(١) ـ نفس المصدر / ١٨٠، وانظر ما يقوله بشأن الفتح العربي من كلام بذيء نعفّ عن نقله في نفس المصدر/ ٢٥٦.

(٢) ـ نفس المصدر / ١٩٤ ـ ١٩٦.

(٣) ـ نفس المصدر / ١٥٢.

العصور، وذكروا ما قدمه الإسلام من خدمة عظيمة للإيرانيين حين حررهم من سلطة الطاغوت، وفجّر طاقاتهم الخلاّقة في شتى الميادين، ومنهم الأستاذ الشهيد مرتضى مطهري في كتابه «الخدمات المتقابلة بين إيران والإسلام»[1].

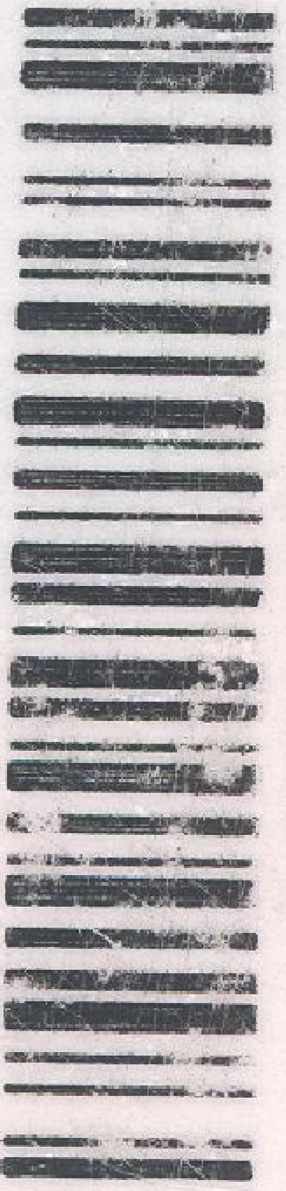
والواقع أن الأمة في إيران حطمت بإيمانها الإسلامي وبجذورها الثقافية الدينية كل هذه الخطط والمؤامرات، وأقامت بحمد اللّه وفضله دولة الإسلام، غير أن كل هذه الخطط تبقى عبرة للتاريخ، وتبقى تطرح هذا السؤال دائماً على المسلمين: إذا كان الطامعون في القرون الثامن عشر والتاسع عشر يخططون بهذه الدقة لزعزعة إيمان المسلمين ولتمزيق صفوفهم تمهيداً للسيطرة على مقدراتهم، فما بالك اليوم ونحن في القرن الحادي والعشرين؟!

♑ ♑ ♑

(١) ـ ينقل الأستاذ المؤلف فقرات من هذا الكتاب تردّ على مزاعم القوميين الإيرانيين، وآثرنا حذفها للاختصار ولإمكان الرجوع إلى الترجمة العربية للكتاب المنشورة تحت عنوان: «الإسلام وإيران».

هذا الكتاب يتحدث عن

التجربة التي مرت بها ايران منذ أوائل امتداد النفوذ الاوروبي فيها. وهي تجربة هامة للقارئ العربي، لأنه سيرى فيها تركيز الغزاة على الجانب الثقافي، واهتمامهم بإبعاد الأمة عن هويتها وأصالتها، وسعيهم لإثارة الخلافات والانقسامات بين البلدان الإسلامية، وداخل البلد الإسلامي الواحد. وتتكرر هذه الخطة بدرجة وأخرى في سائر أرجاء العالم الإسلامي بما في ذلك العالم العربي. وتجارب الماضي بكل سلبياتها وايجابياتها تستطيع أن تكون درساً يسدّد مسيرة أمتنا نحو مستقبل تستعيد فيه شخصيتها الرسالية وعزتها وكرامتها المنشودة.





المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق